

المستحيل



مصطفى محمد

هذه النسخة حصرياً
لمنتديات المكتبة العربية
[Http://www.TipsClub.net](http://www.TipsClub.net)

إعادة الرفع تمت بواسطة

* محمد بحيرى

شكر خاص لـ / م. حامد بكير

مصطفى محمود

المستحيل

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ..
والبيت خال .. زوجتي عند أمها .. وأنا جالس وحدي .. انصمت
إلى صوت تنفس البطيئ فيخيل إلى أنه صوت رجل آخر غريب
لا أعرفه . ويدعني شعور ثقيل مر بالقرية ..
هذا أول يوم أجلس فيه مع نفسي .. وانظر وجهاً لوجه في حياقي
وأأملها ..

أى حياة !!

إني لم أعش أبدا ..

ليس في حياقي يوم واحد أستطيع أن أقول أنه كان يوماً ..
إني لا أعيش .. ولكني أتحرج كحصاة كبيرة ثقيلة .. تسوقني
الوظيفة إلى المكتب .. ويجبرني الزواج إلى البيت .. ويدفعني الملل إلى
المقهى .. ويلقي في الجوع إلى مائدة الطعام .. ويقهرني الفطير على
التدخين .. ويقذف في التعب إلى الفراش .

خمس وعشرون عاماً مرت من عمري كأنها لا شيء .. ازدادت في
الوزن .. في الطول .. في العرض .. ولكني لم أزد في الحياة .
سنة بعد سنة وأنا أغوص في أرض رخوة من الأوامر والواجبات .
والكلمات الغريبة ..

الطبعة الثالثة

١٩٧٧

الواجب .. الأصول .. تقاليد العائلة نحم .. مركز والدك
لا يسمح .. سنك لا يليق فيه كذا .. كرامتك .. ماذا يقول الناس ..
كيف تكون نظرة المجتمع إلينا .. الاحترام .. الوفاق يا أخى ..
حتى الجاكيت الذى البسها كانت سكتة مثل بلا شخصية .. تطول
وتقصر وتتسع حسب المؤنسة .. لا بإرادى .. ولا بإرادة الترى ..
ولكن بإرادة التقاليد ..

فى وقت ما كنت أسك فى يدى منشة .. وفى وقت آخر كنت أسك
عصا .. وفى وقت ثالث كنت البس طربوشاً ..
والآن تضع لى زوجتى منديلاً فى كفى .. وتحرم على لبس الطربوش
كل هذه الأشياء كانت فى الحقيقة تلبس .. ولا ألبسها ..
والحياة كلها كانت تلبس .. وحركاتى تلبس .. وأنا أضمحل سنة
بعد سنة تحت الردم .. تحت ركاب من كلمات كبيرة لزجة ..

أذكر هذا الآن وأنا أتلقت حولى فى حياى .. فى الفراغات الخمس
التي أسكنها ..

إنها غرفات غريبة .. ضيقة .. وسقفها منخفض .. وكل منها توصل
إلى الأخرى .. وهذا ليس ذوقى .. فانا أحب الفراغات الواسعة ذات
السقف العالي التي تفصلها المرات والصلالات ..
وهى غرفات تشرقها الشمس من اليمين والنساء .. وأنا أحب
الفراغات الرطبة الظليلة ..

إن البيت لا يبدو كأنه بيتى .. لقد اختاره والدى .. اختار المكان
والأرض .. وبنى البيت حسب ارادته .. وفصله حسب ذوقه .. واختار
الأثاث قطعة قطعة .. حتى الصورة الكبيرة .. النسخة المنقولة عن
صورة الميوكندا لدافنتى .. هو الذى اشتراها بنفسه وأهداها لى

تناسبة زواجى ووضعها فى الصالون وقال إنها مثال للفوق الرفيع فى
الفن ..

وشرعت من البداية أنها صورة سخيفة فائقة .. وأن دمها ثقيل ..
ولكنى لم أتكلم .. لانى رأيت من الواجب أن أكون مؤدياً .. وأن أجمال
والذى فى هديته وأمدح ذوقه .. فقلت له : نعم .. أنت على حق أنها
رائعة ..

وقال فى زهو العارفين :

- انظر إلى اليدين جيداً ..

ونظرت إلى اليدين جيداً .. فلم ألاحظ شيئاً .. وقال فى انتصاره :

- إنها تبتسان .. انظر .. هذا هو الإعجاز فى اللوحة .. إن الرسام

رسم اليدين تبتسان ..

إن فى اللوحة كلها ابتسامة غير متظورة لقد كان الرسام يجلب معه
كل يوم فرقة من المازفين لتعزف للجيوكندا وهو يرسمها ليدخل فى قلبها
السعادة فتبتسم .. وأنت تحس بالموسيقى .. وتسمعها وأنت ترى اليدين
فى وضعهما الجميل الباسم ..

وأكبرت فى والدى هذا الإحساس المرفف .. وإن كنت لم ألاحظ أنا
أى شئ غير عادى فى الصورة .. وظللت أعيد على كل ضيف يزورنا
هذه القصيدة .. عن الابتسامة غير المتظورة .. والموسيقى .. والإعجاز
فبز رأسه قائماً كما حزبتها ويقول فى آلىه .. يا سلام .. حقاً إنها
رائعة .. واليدان تبتسان .. قائماً .. يا سلام ..

ويروح بدوره يحكى القصة لصديق آخر ..

وظللت على إكبارى لوالدى .. وذوقه .. ونظرنه العميقة الناقدة حتى
قرأت مصداقة .. وفى مجلة قديمة .. كل هذا الكلام بالنص .. عن
الابتسامة غير المتظورة والموسيقى فى اليدين .. والإعجاز .. الخ .. الخ ..

ولا أدري لماذا أحسست في تلك اللحظة أن الحكاية كلها كلام فارغ
توارث روته الصحف وتناقله القراء .. كل قارئ يردده على أنه رأي
الخاص وذوقه .

وظللت من يومها أشعر بالفيظ كلما رأيت الصورة مدلاة من الجدار
في غرفة الصالون .. وأتسحر أني لم أقل رأيي أبداً فيها .. وأنى عشت
أردد كلمات غريبة عنها طول عمري .

وكان من عادة أي أن يزورنا كل يوم جمعة ليظمن على .. هكذا
كان يقول .. ولكني أعتقد الآن أنه كان يعمل هذا ليظمن على نفسه
ليرى أن أوامره ما زالت نافذة .. وملاحظاته معمول بها .. التواليب
مغلقة بالمفاتيح .. والمفرش المتسع موضوع على مائدة الطعام ..
وأصيص النعناع في البلكون .. والتوافذ كلها مفتوحة لتدخل
الشمس .. وأول شيء ينظر إليه عند دخوله هي التوافذ .. فإذا رأى
النشيش مغلقة فتحه على مصراعيه وهو يصيح :

- الشمس يا بني الشمس .. هذه شمس لا مثل لها في الدنيا .. إنها
أحسن دواء للروماتزم .. افتح النشباك عندك .. أنا قلت ألف مرة
افتحوا كل النشايك ..

ويتمدد في الشمس يطرق مفاصله ..

وأى كان دائماً يشكو من الروماتزم .. ولهذا كان يفتح النشايك في
بيوت أولاده .. في كل وقت .. وفي كل فصل من فصول السنة .. ولو
استطاع لسقانا فتجاناً من السلسلات ثلاث مرات في اليوم كما كان
يفعل .

ولم يكن يجدي أن نتج ونقول أننا أصحاء .. وأننا لسنا مرضى
بالروماتزم .. فمضى أن يكون أي مريضاً بالروماتزم .. أن تكون جميعاً
مرضى بالروماتزم .. فأنى فمض تركى فيه كل أخلاق الأثراك ودماعهم

الناشف .. وغرامهم بالأمر والنهي .

وكان يعاملنا نحن أولاده كأننا تكية .. ويعيش حياته ويعيش لنا
حياتنا أيضاً .

لم يحس واحد منا في أية لحظة بأن له كياناً مستقلاً .
أذكر حيناً كنا صغاراً أن أبى كان يحب النشاي فكتت أشرب معه
النشاي .. وحيناً تقدمت به السن ومرض بالضغط وحرم عليه الطبيب
ترب النشاي .. أصبحت أشرب الينسون .. لأنه أصبح يشرب الينسون .
وظل سلطانته يخلق فوق رأسى حتى بعد أن تجاوزت سن التلمذة
وتخرجت من المدارس لأعيش بإيرادى الخاص .

كنت أستشيرهم من تلقاء نفسى كلما وقعت في مشكلة .. كان الخوف
ما زال في دمي .. الخوف من الدنيا .. ومن المرأة .. ومن أن أحسم
أمراً بإرادتى .. وبدون مشورته .

كان قلبى تأكله الرغبات من الداخل ولكنى لم أكن أجسر على
التفكير فيها وإنبياعها .. وإفا كنت أتردد وأخاف وأجزع ثم أكتفى بأن
أفنى ثم أعرب من المشكلة كلها وألوذ بوالدى أطلب نصيحته .. وأترك
له حياتى يث فيها ويعتار كما يشاء كأنه الله أو القدر .

وهكذا ظلت حياتى معطلة طوال هذه السنين .. وظللت أعيش طفلاً
كبيراً .. بلا قلبى الخوف والاحترام والرغبة ..

ولو سألتنى إن كنت أحب أمينة زوجتى .. لما وجدت جواباً .. فأنا
لم أحبها .. ولم أكرهها .. ولم أشترها .. وإفا هي كصورة الجيوكندا
وضعا والذى في بيتى .. وقال إنها جميلة ورائحة .. فقلت خلفه كالطفل
جميلة حقاً .. ورائحة .. واحتضنتها كما احتضن كل كلمة يقولها أبى .
ولكن بقدر الراحة التي كنت أحسها في هذا الحب إلا أنى كنت
أحس أنه ليس حبي أنا .. وإفا هو حب أبى وذوقه واختياره ..

كان كل شيء حولي لا يمت لي .. كان كل شيء غريباً عني .. حتى ملايبي .. حتى أفعالي .. حتى أقوالى كانت غريبة عني ..
ولكني لم أكن أدرك مشاعري بهذا الوضوح في البداية .. لم تكن في ذهني فكرة واضحة عن شيء ..
كنت أعيش في ظلمة وألمة .. وبلادة .. واستسلام .. حتى مات أبي فجأة ..
وأفقت لأجد نفسي وحدي .. بدون سند إلى جسواي .. بدون قدر .. بدون إله .. بدون حسب .. بدون مبرر لأني فعلت أفعالي بسوى إرادتي ..
وأين هي إرادتي ؟

لقد كنت أتردد ثلاثة أيام متتالية في توقيع شريك .. وأنظر فوق كتفي بين لحظة وأخرى .. أنتظر أن يظهر والذي فجأة لأشأله .. هل من الصواب أم الخطأ .. توقيع هذا الشريك ..

ولم يكن هناك حل ..
كان لا بد لي أن أحل أعبائي بدون معونة أحد ..
وكان هذا يسبب لي قلقاً حاداً قاسياً يجرمني النوم ..
لقد بلغ ميراثي وحدي من تركة أبي مائة فدان غير العقارات والأموال ومستندات البنوك .. وهي ثروة كبيرة فوجئت بها ..
وكان معنى هذه الثروة أن أذهب في عشرات المشاور كل يوم .. إلى البنك .. وإلى البلد .. وإلى البورصة ..

وفي كل مشاور من هذه المشاور أقابل ناساً لا أعرفهم .. أناقتهم وأوقع على أوراق .. وأضى على عقود .. وبدأ صفقات .. وأنهى صفقات .. وفي كل لحظة من هذه اللحظات أشعر أني وحيد متردد خائف .. وأعود من البنك مبلبل الذهن .. في ظني أني قد نسيت شيئاً ..

وقعت في خطأ ما .. أو تورطت في إجراء غير قانوني ..
ولكن بمرور الأيام بدأت اكتشف أن المال في البنوك والإدارات المالية يحفظ نفسه بنفسه .. وإلى لست في حاجة إلى دكاء كبير لأضاعف أموالى .. فالأموال تضاعف من تلقاء نفسها في العقارات والأراضي والبنوك .. وما على إلا أن أنهب أول السنة لأجمع الأرباح وأوقع في دفتر .. وبدأ الخوف يرايلي ..
وبدا ذهني يتصرف إلى أفكار أخرى ..
أفكار لا علاقة لها بالأرض .. والبنك .. والمرحوم والذي .. أفكار لها علاقة بي .. أنا ..

وحينما أحضرت لي زوجتي كوب الشاي منذ أيام .. وقلت لها :
أنا لا أحب الشاي ..
نظرت إلى في دهشة واستفهام .. فهي لم تعود مني أن أقول .. أنا .. لا أحب ..

تعودت أمينة أن أكل ما تقدمه .. وأشرب كل ما تقدمه ..
ولكني قلتها ..
قلت .. أنا لا أحب .. وأنا أشعر بدهشة أنا أيضاً .. لأنني أقول ما في نفسي لأول مرة بدون أن ألقى بالا لأحد ..
واكتشفت في ذلك اليوم عندما دخلت غرفتي وجلست على مكثتي .. أني لا أرفض الشاي وحده .. ولكني أرفض معه أشياء أخرى كثيرة ..
أرفض بيتي وحياتي .. وأنتهى أن أصرخ فجأة .. لأول مرة لزوجتي أنا لا أحبك .. وأقول عن حياتي أنها سيئة .. وأنزع الصورة المدلاة من الجدار .. وألقي بها في الشارع ..
ولكني لم أجد الجرأة على أن أقول كل هذا ..

واكتفيت أن أرفض الشئ في عصبية .. وأزججه من أمامي .. ثم
أشعل سيجارة ..

وعادت حياتي قبيحة أمامي .. كشرط سريع .. حياة سخيفة مثل
لحبة مستعارة .. ليس فيها ملاهي .. ليس فيها .. أنا ..

وشعرت بشهوة الطفل في تحطيم أى شئ .. والجري إلى الخلاه ..
إلى الهواء الطلق .. والمريدة .. والضحك .. والبكاء ..

شهوة ملحة في أن أبسط أجنحتي التي كانت مضغوطة طوال هذه
السنين .. وأخلق بها كالمطائر ..

وتدفقت أيامي كلها .. تطالب بمحقتها في أن تعيش من جديد ..
طفولتي .. صباي .. نياي ..

ثم عاودت الجبن .. وثيقظ خوفي القديم .. وأمسك بعقال ..
وسكت على مضض .. وأنا ألوك في فني آلاف الكلمات ..

ولكني أحسست أني تغيرت .. وأصبحت شخصا آخر غير حملي
القديم ..

عرفت لغة التردد ..
وظل هذا الإحساس يلزمني .. وأنا أدخل إلى البورصة ..

والسيجارة ما زالت في فني .. وعيناي تقصر أن الكلمات المكتوبة على
السبورة في الدور العلوي ..

حركة الأسعار .. نوع الأوراق المالية .. أسعار الفتح .. أسعار
الإفقال ..

وأذن تنقسط صيحات السهاسة حادة مختلطة .. سيجورات ٨٤٤
سيلوس .. سيلوس .. التعدين ٤٠٠ بايع .. بايع ..

الناجم ١٢٨ .. الملح .. الملح .. شارى ..
أصحت طره ٩٧٠ .. مانكسا .. مانكسا .. بايع ..

والأيدي تلوح .. وتتجلك ..

والأصوات الحادة ترن في أذني كأصوات القطط .. وهي تتماوى على
صفحة قامة .. وعيوبها تنع ضوءاً أخضر مخيفاً .. ناو .. ناو .. ناو ..

غو .. غو ..

ورأس الحواجة مترى التاجر العجوز ووجهه الأبرص المرقط
بالبياض يذكرني بوجه قطننا .. جيجي ..

وانتقلت عيناى في آلة لتقرأ على لوحة أخرى .. كترارات أقطان
طويلة التيلة .. قولى جود ..

وسجت الحواجة مترى يتحدث ويلوح بيده ..
- يا جيجي الدنيا هنا مجازفة .. التي عاوز يكسب لازم يجازف ..

يرمى نفسه .. اللي يخاف هنا يموت ..
وروقت خائفاً في ركن أطلب نصيحة الحواجة مترى قبل أن أبيع

أوراق ..

وأشار على بصفقة صغيرة ..

وأسكتت بقلمي لأوقع الإذن .. وأحسبت برعشة التحدى تنتقل
إلى بالعدوى من الجو المكهرب حولي ..

كان كل واحد يتصر .. ويتلمظ على المكسب ..
وأخذت أنا الآخر .. أتلمظ .. وأتصر .. وأتبع أسعار

أسهمى وهي ترتفع .. وتقفز من رقم إلى رقم على التابلو .. وأتبع
الطباشيرية وهي تكتب ١١٢ - ١١٤ - ١١٨ - ١٢٠ - ١٢٢ - ١٢٣ ثم

توقف ويصرخ السمسار بأعلى صوته ١٢٣ - ١٢٣ ..
وترددت .. لامن الخوف .. ولكن من الطمع ..

لقد ارتفع السعر ١١ بنقاً في يوم واحد .. فما بالى لو انتظرت يومين
آخرين ..

وشعرت بطمعي يتقلب على خوفي .. وشعرت بإحساس الطفل الذي تزوج عيانه أمام دكان الحلوى ..

وغزنى الخواجة م ترى لكى أبيع .. ولكنى لم أبيع ..
وحينا خرجت فى ذلك اليوم .. كنت أشعر بشئ جديد غامض يدخل حياى .. كنت أحس بنض الحماض والجمرأة يتسلل إلى عروقى ..
وكنت أشعر بحياى القديمة تسقط عنى شيئاً ففسيتاً كالرداء .. وتبدو غريبة ..

زوجتى .. بيتى .. فتجان النساء الذى أربسه على القطور ..
أصوات الشارع الأليفة وهى تملو فى الصباح تحت نافذتى .. هممة أم حسن خادمتنا المعجوز على سبعتها .. ودعاؤها لى بطول العمر ..
كل هذا كان يبدو لى فى تلك اللحظة كعلم غريب غير حقيق ..
لقد تغيرت ..
كان هذا الإحساس يسعدنى .. وكنت احتفل به فى قلبي ..

وحينا خرجت من السينا فى الثانية عشرة لم أشعر برغبة فى العودة إلى البيت ..

ورأيت قديمى تسعين على غير عادتى إلى ملهى ليلى ..
ودخلت فى وقت كانت الراقصة فيه تلقى بشمالها .. وتجايل ..
وتناود .. وتنام على ظهرها .. وعازف الطبلية يقفز حولها كالقرد ..
ولفست نظرى أن كرسى عازف الطبلية عليه شئله ولا أدرى لماذا خطر لى أن عنده بواسير ..

وضحكت طويلاً لهذا المخطر السكران ..
ولم أكن قد دقت قطرة خمر .. ومع هذا كنت أشعر أن رأسى مشتعلة

خفيفة .. وكنت أرى سبباً للضحك فى كل شئ حولى ..

وبدت لى حركات الطبلية مثيرة للضحك .. وكان كلما مد يده خلفه ضحككت ..

وحينا تركت الملهى فى ساعة متأخرة من الليل فاضلت أن أعود إلى بيتى ماشياً ..

وكنت أجد للهواء طعماً للذيد فى رتى .. وكنت أستنشق فى بطء ..
وبداى فى جيب بطولتى .. وفى يصغر اغنية شعبية ..

وكان كل واحد يمر بى .. يبسم ..

وحينا فتحت باب شقتى فوجدت زوجتى تقف أمامى شاحبة حمره العينين قلقة .. تنثف فى صوت خائف :

- أين كنت طول الليل ؟

وتذكرت فجأة أن الساعة الثالثة صباحاً .. وأن هذه هى المرة الأولى التى أسهر فيها إلى هذه الساعة المتأخرة ..

ومسحت على وجهى بيدي .. وأنا أفيق .. وأعود شيئاً فشيئاً إلى نفس القديمة ..

وتخمت بكلام لا أذكره ..

وخلفت تيابى .. وتناولت عشائى وأنا صامت .. لم أكن سعيداً بعودة هذه النفس القديمة ..

وبدا لى فى تلك اللحظة أنى هبطت فجأة من السماء إلى الأرض ..
وعدت إلى الحياة .. كإنسان ميكانيكى يدور بزميلك ..

وتناولتى زوجتى خطاباً عليه طابع دمشق .. ونظرت فى الخط .. وأنا أتساءل .. من الذى يرسل إلى خطاباً من دمشق .. ووضعت فى جيبى ..

وفى الغرائس مدت يدي إلى الخطاب وفتحت لأقرأ هذه السطور ..

عزيزى حلمى ..

لعلك لا تذكرى الآن وأنت تقرأ التوقيع .. فقد مضى على افتراقنا سنوات طويلة .. ولكنى أذكرك .. وأذكر معك أجمل أيامى .. حينما كنا نلعب أنا وأنت وأخى صافى فى عزبة والدى ونحن صغار .. ونجرب فى دائرة حول النورج .. كل منا يسك بذيل الآخر .. وأذكر أيام زمالتنا فى المدرسة الابتدائية .. وأيام هروبتنا معا .. حينما كنت تخاف وتعود إلى المدرسة وأمضى أنا وأخى صافى لتقضى اليوم فى حديقة الحيوان .. واليوم جلسنا نتحدث عنك أنا وأخى .. وفكرنا أن نلتقى ثانية .. لنتعرف على ماضينا الحلو .. ونعيد أيامنا الجميلة ..

إننا نعيش الآن فى دمشق ولنا أملاك وأراضى هنا .. ونحن ندعوك لقضاء شهر فى ضيافتنا .. ولنا أمل كبير فى قبولك هذه الدعوة .. ونحن فى انتظار اليوم الذى تصدده .. وإلى أن نلتقى لك حيناً وأخوتنا .

« فؤاد »

وسعرت بوجعة من السرور .. وأنا أقرأ الخطاب .. وأعدت قراءته وأعوضت عيني ..

سوف أذهب إلى دمشق ..

وأخلع رداق كله .. أخلع على هذا البيت العتيق بأركانه المظلمة .. وأخلع على القاهرة كلها .. وأخلع حياق .. وعاداتى .. وكلماتى .. التى أقولها كل صباح .. وأعيش ..

وسعرت بدغدعة النشوة فى كل جسدى .. ونظرت إلى زوجتى فرأيتها تنظر إلى باستغراب .. وتسالنى عما فى الرسالة ..

ولم أجيب .. وتناوشت .. فأحاطتنى بذراعيها .. ولكنى لم أنسعر بالرغبة فيها ..

وأحسست بأطرافك تبرد وتتلعج تحت لمستها .. وأدبرت لها ظهرى وبدأت أعجب صافى .. وجهها التركى الأبيض .. وصفيرتها الذهبية .. وعينها الصافيتين مثل كأسين من عسل النحل .. وذراعها البيض مثل عود الخوص الطرى ..

وتدفقت الرغبة حامية فى عروقى .. وأحسست بلهب الجنس يحرق دماغى ..

ولكنى أخفيت هذه الرغبة كأنى أخفى سرأ .. وضننت بها .. وتركها تغل فى دمي .. وتورقنى .. مثل سر لذيق جداً .. وظللت أحلم ..

وكانت زوجتى تتحدث .. ولم أكن أسمعها ..

كنت أنظر إلى قفها وهو يفتح وينغلق .. وإلى كتفها العريضتين .. ودقت ساعة الحائط أربع دقائق .. وفعل قلبى فجأة وعادنى الحسوف وأحسست أنى ضعيف .. وأن الساعة تدق منذ خمس وعشرون سنة .. وأنا فى بيتى لا أبرحه ..

وداهنى شعور بالتردد .. شعور من يد رجله ليخطو خطوة واسعة فى الظلام ..

توقفت في الصباح وقد نسيت كل شيء .. وفي اللحظة التي كنت ألبس فيها ثيابي .. كنت أدخل في عاداتي القديمة في نفس الوقت .. وكانت زوجتي تمر بالفرشاة على نفس الأماكن من القماش التي تعودت أن تمر عليها كل يوم .. حول الياقة .. وعلى الأكمام .. وعلى الظهر والأكتاف .. وثنية السروال ، ثم تتصقق كماداتها أن آخذ بالي من الطريق وتنتظر إلى نفس النظرة الممتدة .. وأم حسن تجسري خلقى وفي يدها الحقيبة .. والياب يزوم كمادته دائماً كل صباح ليشتكو من رطوبة مفاصله .. وحارس المسعد يرفع يديه الإثنين لتعني .. ويفتح فمه في بلاعة غنبدو مستته الذهبية .. نفس السنة الذهبية ذات الطربوش المكسور التي أصطليح بها كل يوم .

وجلس في العربة .. وتساعدت الى أنى رائحة البازين .. وجمعت صوت الموتور .. ورأيت واجهات الحلات تتحرك في الزيجاج وتغنى .. ولكن أذني ظلت تردد جملة واحدة طول الطريق .. جملة قالتها زوجتي وهي تعطيني المندبل .

لا تنس أننا سوف نحتفل اليوم بعيد ميلاد ابننا .. جملة غريبة في هذا السيل من الحياة العادية .. ظلت ترن في أذني طول الطريق .. وأنا أحس أنها جملة خطيرة ..

وأنتذكر احتفال السنة الماضية .. الذي لم يحضره أحد سواي أنا وزوجتي وأبي .. وكيف كانت زوجتي غاضبة لأنها لم تدع صديقاتها وأبي غاضب لأنها تناقسته وتريد عزومة الناس .. وماذا وراء عزومة الناس إلا الحسب .. وأنا أكل من التوتة ولا أفكر في شيء .. وابننا يصرخ في الفرقة ..

ولكن الآن أفكر في أضياف كثيرة .. وأنتظر هذا الاحتفال بشوق .. وكلما زوجتي ترن في أذني كما ترن بشرى العيد في أذني طفلي .. وإحساسي بالثرق يدفعني إلى الضغط على الكلاكس .. والعبث .. وأنا أسوق .. وأتراجع شيئاً .. ويساراً .. اليوم نحتفل ..

أنا أشعر بانسباط .. وأنا توقفت عند دكان لعب .. واشتريت قرداً بزميلك بققز ويصفيق يديه .. واشتريت ورقاً ملوناً .. وصواريخ ..

وتوقفت مرة أخرى عند محل ود .. ثم عدت أستأنف سيري .. وأسلم نفسي إلى حياقي العادية .. وعلى شفتي ابتسامة ..

وفي المساء حيناً عدت الى البيت .. دخلت غرقى وأنا أصغر .. ثم أغلقت الباب .. وأخرجت القرد وأدرت الزميلك .. ورحبت أتفرج عليه وهو يقفز ويصفيق يديه حتى توقف .. ثم أدرت الزميلك مرة أخرى .. ورحبت أتفرج ..

ونسيت أني قد أحضرت اللعبة لطفلي .. ورحبت ألبس بها .. ولكن زوجتي التي تسلمت من الباب الموارب وجاءت تستطلع .. ووقفت تتفرج خلقى .. ما لبثت أن هتفت في دهشة أيقظتني : أنت الذي تلعب .. غير مقول ؟

وضحكت وأمتت في الصلح ..

ومع هذا .. فقد أسكنت هي الأخرى بالقرد .. ثم بدأت تدبر الزمبلك . وتلمب .

ثم قالت فجأة في مرج :

- إن حفلة اليوم ستكون لطيفة .. لقد دعوت جيرانتا .. ودعوت صديقتي فاطمة .

ورفعت رأسي عند ذكر الاسم ..

وكنت أسمع منها دائما حكايات كثيرة عن صديقتها فاطمة الصامية .. ولكن لم أكن قد رأيتها أبداً .

وكانت كثرة ذكورها أمامي .. ورواية حكاياتها .. قد جعلت لها شخصية في ذهني .

وشعرت بمرور شيء .

وعدت أملاً الزمبلك .. وأصرح على القرد .. وهو يقفز .. ويصفق بيديه ..

لأول مرة كنت أشاهد كرمي الصالون من غير يياصات هذه الليلة .. وقاض الطقم يلعب في ضوئ النجفة الكريستال ..

وكنت ألتصق قاض الطقم في لذة .. وأختلس النظر إلى الضيوف . كانوا ثلاثة .. جاراتنا الأستاذة عزيز .. وزوجته نادية .. وفاطمة الصامية ..

وكنت أختلس النظر إلى فاطمة وأتبع حركاتها في اهتمام ..

وأجد من الصعب الآن أن أصف إحساسي بها لأول مرة

كان إحساسي حيناً أسكت بيدها لأصابعها إلى أسلك بأصابع

خالية من العظم .. وبشرة ملساء فيها علاسة حيوانية كأنها جسم « عرس » .

وكان صوتها المبلل وهو يحادقني فيه لزوجة تلصق بالأذن وبالأعصاب .

ولم تكن جميلة .. ولكن جسمها كان فيه بضاعة ..

وكان صدرها يكظ من فتحة ثوبها .. وكانت أرقاها تضغط على الفستان .. وكانت استدارة كتفها وهي تفتن تحت الحرير الأسود المطرز تثير الخيال والتصور .. وتفريه على تتبع هذا الانسيال .

وكان تكرر بطيها تحت الفستان يوحي بأن لحمها ليس فيه نية واحدة وأنه مشدود متوتر .. فأنز .

وكانت عيناها فيها بريق .. يومض .. ويتلظى .. حيناً يعكس عليها الضوء .. وهي تلتفت .

وكانت في شخصيتها جرأة واقتحام .. وكانت في كليتها مبادرة غير عادية في النساء .

كانت على عكس زوجتي غاماً ..

وكانت زوجتي سعيدة بها جداً .. فخورة بشخصيتها وجرأتها .

وكانت تقول وهي مبهورة :

- هذه هي رائدتي . هذه هي القائدة التي كانت تزعمننا في المظاهرات وفي الإضرابات .. وكانت خطيبة المدرسة الرسمية .. وكانت رئيسة الإخوات المسلمات .. ورئيسة فرقة التمثيل .. ورئيسة كل حاجة ..

- فعلاً . إن محال الزعامة تبدو عليها .

كنت أقول هذا وأنظر إليها .. فتبادلي بنظرة نابتة وعيني فاحصتين لا تطرفان حتى أنكس بصرى .. فتلاحقني يكلباتها وصوتها المبلل ..

وتبادرنى قائلة فى تحد :

- ما لكم دافعاً تصابون بالدوار حيناً تسمعون عن امرأة .. تقود وتأسر ..

فأقول وأنا أحاول أن أثبت نظرك فى عينيها :

- لأن المرأة تنسود وتأسر فعلاً بدون حاجة إلى مظاهرات وإضرابات وغضب .. لأننا نجيبا ونسلمها ذقونا .. فيصبح الرأى رأينا والكلمة كلمتنا

- أنا أرفض هذه القيادة التى أغوز بها جسدي تنازلكم .. إنه غرور منكم أن توقفوا حياتنا على حبكم .. أنا أيضاً فى غرورى .. أنا أريد أن أغتصب حتى يبيد .. وأخذه رغبا عنك .

- أسمع الكلام .

وتصفق زوجتى فى سرور وإعجاب .

- أسمع الكلام .. هذه هى المرأة الجديدة التى سوف تزيك مقامكم ..

- أنها لن ترينا مقامنا .. وإنما هى سوف تسعى إلى حفلها بيدها .. سوف تتحول إلى رجل .. وسوف نرحب نحن بأن تصبح نساء . نجلس فى البيت ونأخذ نفقة ومؤخراً ومقدماً وشبكة وبذلات أنيقة وكراقاتات مولكا لأعياد ميلادنا .. إنها ودية يسرنا أن نقعن فيها . أنا لا أمانع شخصياً فى أن أنام فى البيت وأنازل لكن عن الشقة وغرق الجين .. - أنتظر أنه يمكن أن أتحول إلى رجل .. إني أعمل منذ خمس سنوات .. أنتظر أنى أصبحت رجلاً .. أنتظر جيداً ..

وترمقى بومس عينيها فى دلال . ويقهقه الأستاذ عزيز :

- إنك لا تظنين يا صاحبي .. اسمع نصيحتي .. إن الطريق الوحيد لتخطب المرأة هى أن تجعلها تحبك .. وعينا تحبك سوف تقتنع بكلامك ..

وتكف عن مناقشتك ..

- لماذا تصرون على تصويرها هكذا فى صورة مخلوقات عسوطا فى عواطفها .. مخلوقات لا تفهم ولا تفعل .. ولا تحركها إلا نزواتها . أنتم واهمون .. نحن الذين ضحكنا عليكم .. وروجنا هذا الوهم .. وأدخلنا فى ذهنكم أننا مخلوقات عاطفية قليلة الحيلة .. وأنكم شطار وأقوياء .. ضحكنا عليكم بهذا الكلام الفاضى لتأكل عقلكم وتأخذ ما يريد .. تماماً كما نفعل مع أطفالنا ..

وتصفق أمينة وتقف وتجلس فى سرور .

- أسمعون !! لقد ضحكنا عليكم كما تضحك على أطفالنا .

ويقهقه الأستاذ عزيز ويهيج على رأسه الأصم .

- أنتن يا نساء لا تجدن إلا الثرثرة .. إن الله لم يقطع ضلعاً من آدم ويصنع منه حواء .. ولكنه فى الغالب قطع لسانه وصنع منه امرأة .. وخصوصاً حيناً تكون المرأة محامية مثل فاطمة .. إنها لا بد أن تكون مخلوقة من لسان ضاى أصلي .

- أنا شخصياً أعتقد أن الله قطع أصبع حواء وصنع منها آدم .. وما زالت المرأة إلى الآن تصنع الرجال بأصبعها .. أنها تشير فى أى مكان إلى الرجل فينبهها وما يلبث أن يصبح زوجها .. وأنا فى الحكمة أسمى بأصبعى وأنا أنرفع .. وأتقد أعناقكم يا رجال من الشسائق .. وهكذا بأصبعي فقط

وتهدل وجه أمينة فى سذاجة .. وهى تحتصن صديقتها .

- أسمعون .. بأصابعنا .. فقط ..

ويقهقه الأستاذ عزيز .

- لا غائدة من مناقشة امرأة .. إنك تلف وتدور .. ثم تسلم لها بكل ما تريد .. لأن دمها خفيف .. ولأن لذة إرضائها تفوق لذة الحقيقة ..

أنا شخصياً أرفع الراية البيضاء .. وأسلم ..

- برفاه يا فاطمة كسبا لقضية ..

وتضحك فاطمة وتبتف.

- أشكرك .. والأين .. أين مؤخر الاتصاف ..

- لقد أعددت لك عشاء شهياً ..

- راتع .. يا أختي ..



وعلى السواء كان في إمكان أن أراقب الأستاذ عزيز عن كتب ..

وأتألمه .. وهو يتكلم .. ويأكل .. ويلوح بيديه ..

والأستاذ عزيز قصير القامة .. في الأربعين .. رأسه صلعاء في

منتصفها .. ولكن الشعر الأبيض والأسود يكسوها من الجانبين ..

وهو حيناً يتكلم يلحق شفتيه بلسانه من لحظة لأخرى ثم يزم فمه ..

فتبدو شفتاه رفيعتين جداً .. وفمه مرسوماً في صرامة وقسوة ..

وهو يتكلم بحدة .. ثم يتفجر في الضحك من تلقاء نفسه .. ويقهقه

بحدة أيضاً ..

وطول الوقت كان عزيز لا يرفع بصره عن فاطمة .. وكان يحيل إلى

أحياناً أنه يأكل منها هي .. ولا يأكل من الطبق .. لأن الطبق كان

يفرغ ولا يفسن إلاه .. ويظل يحصل أمامه حيث تجلس فاطمة إلى

جوارى .. وتهدأ القاهران ينصبان من صدرها في تكور شهى

وجراح .. وكنت أحس وهي إلى جوارى مجلس ذراعها .. وبذلك

التسور الأملس الحيواني الذي يتسرب الى من جسمها العرى الذي

يشبه جسم « العرسة » .. فأشعر بالخدر وأترك كني لا صفاً يكتفيها ثم

أعود فأتلفظ وأنشر جيداً .. وأنظر الى عزيز .. وهو يلحق شفتيه

ويزم فمه .. ويحبه كالقطعة وهو يأكل ..

وكان الكلام يدور على المائدة عن الحاملة .. والمعارفات التي تلتها

الحامية أثناء العمل ..

وكانت زويجي تتكلم عن قضية الوقف التي رفعناها من سنين .. ولم

يصل فيها إلى نتيجة .. وتقترح على أن تسلم القضية إلى فاطمة ..

لتسألها بمسيرتها .. وفاطمة تبتدي استمداها .. ثم تنظر إلى ناهي

وتبتس :

- أخذ فيها ألف جنيه ..

- أنا مستعد .. إنكسبها أولاً وأنا أعطيك ألف جنيه ..

- إنفقنا .. مر على غدا في المكتب .. لنبدأ في الإجراءات ..

ولا أدري لماذا أحسست بالخجل فجأة .. كأني طفل يأخذ ميعاداً

غرامياً .. وضايقي إيساسي .. ونظرت إليها في رهبة من جانب عيني ..

وضبطتي وأنا أنظر إليها خلصة .. وابشمت .. ثم ضحككت ..

وأشرق وجهها بسعادة آفة .. وغرور .. صابقتي أكثر وأكثر ..

وشعرت باللفظ وعيل إلى السخرية منها .. فقلت وأنا أضغط على

كلماتي .. كلمة .. كلمة ..

- أن كل أمتي الآن أن أعيش حتى يصبح كل القضاء نساء ..

وأشاهد قتل كل الضاميات يعني ..

وضحككت فاطمة وهزى عزيز رأسه .. بينما أردت أنا في هدوء ..

- إننا نحن الرجال الذين تكسب لكن القضاء .. أنتن تصعن علينا

ولو كنت قاصياً ووقفت أملأى نيكين حظ المتهم حتى يح صوتك .. فإني

كنت أعطيك البراءة بمرءة التفتة .. فأنتن منها أخذن الشهادات

والدبومات وارفع صوتكن بالجميعة .. صتات .. ولايا ..

فأجابت فاطمة في بساطة :

- حينما يصبح المصباح امرأة والقاضي امرأة سيكون المتهم رجلاً ولن
تحمنا النسوة حينذاك لأنها ستتح على ضامعكم ..

- حينذاك سوف نترك لكن الدنيا .. وتذهب لتعيش في القمر أو في
أى كوكب آخر .

- حقاً ؟ .. أنتستطيعون ..

وكانت تنظر إلى وكأنها تقول لي من طرف غش .. إنك لا تستطيع
حتى أن تترك الكرسي بجانبى ..



كنت أدهش بشراة بعد العشاء .. وأنظر في الركن حيث توجد
زهية كبيرة قديمة .. والضيوف من خلق ياثرون ويضحكون .
وفاطمة تحتضن ابني وتقبله .. وصوت البيانو يعلو من أقصى الغرفة ..
فأظن أنه الراديو . لأن البيانو عندنا مجرد قطعة أثاث يلففها الزراب
من ستين .. ولا يضرب عليه أحد .. ولكني فوجئت بدمام عزيز جالسة
على كرسي البيانو تعزف ..

ودعشت لأني طول السهرة لم ألقن إلى مدام عزيز .. لم أمس
يها .. كانت موجودة منذ طول الوقت .. لكن بدون صوت .. لم تتكلم
كلمة واحدة .
وتذكرت أنها كانت تجلس عن يساري على المائدة طول الوقت .. ولم
أنظر إليها ..

وكان زوجها عزيز يقف على مقربة .. ينثف الدخان من سيجار
ضخم .. وقال لي عندما رأي .. أن زوجته نادية عازفة بيانو ممتازة .
وسمعت زوجتي تهف :

برافو ياناني .. هذا عزف رائع ..

ورفعت نادية رأسها الصغيرة .. ونظرت إلينا ..
كان وجهها رقيقاً صغيراً فيه طفولة .. وعيناها السوداوان لهما قلق
وشرود .

وكان يميل إلى أنها لا تترانا .. وأنها تنظر من خلالنا ..
وعادت إلى العزف .. وأخذت رأسها الصغيرة خلف البيانو ..
أين سمعت هذه المقطوعة ؟؟ ..
واقتربت من البيانو ..

وكنت أرى شعرها المتهدل .. وكفيا المتحدرين وجسمها الضئيل ..
ويدها الصغيرة وهي تتنقل بسرعة على مفاتيح البيانو ..
وانتهت من العزف .. ورفعت رأسها ببطء .. ودارت بعصرها
فينا ..

ومرة أخرى شاهدت عينيها السوداوين وذلك القلق المجهم ..
والتردد .. والضياع .. الكامن فيها .
كانت تنظر إلينا كأننا غير موجودين .. وتتكلم في همس .. كأنها
تكلم نفسها .. ويتيسم ابتسامة فيها وجل وتردد .
وقال عزيز :

- ان زوجتي تقرأ كثيراً .. إنها دودة كتب .
واخفت صوته في ضوضاء البيت .. ورين صيحات طفل وهو
يجري .. وفاطمة تجري خلفه ..

ومرت لحظة صمت .. وسعل عزيز سعلة حادة .. ثم عاد بمحاول
اشمال سيجاره الذي انطفأ .



في تلك الليلة حينما أغضضت عيني لأشام .. حاولت أن أتذكر الوجوه

التي شاهدها في الحفلة .. وجهاً .. وجهاً . ولكنى لم أستطع أن أجمع
أشتاتهما من فنى .

كانت صورة فاطمة تلج على خيالى وتتسلل إلى أعصابى وبمهما
تميل يحدرفى كلى ..

صوتها اللبل .. ولملمسا اللعاب الحيوانى .. وصدرها النافر
الرجراج .. والبريق المشع فى عينيها .. وشخصيتها الوقحة .. وكلامها
الملى بالاستفزاز .

وأكتشفت أنى تسيت قماماً أصدقاء بمشقى .. ومشروع دمشقى ..
وانزلقت من ذهنى كل الرغبات وحل محلها شعور واحد مختلط .. هو
فاطمة . اشتها .. ونفور .. وغيط .. وحوف .. ورغبة فى فاطمة ..
رغبة فى إيدائها ..

كنت أنجيل أنى أمزق فستانها حتى تصرخ . وتقول : ارحمى .
ولكنها لم تكن تقول .. ارحمى .. وإنما كانت تضم أطراف جسدها
المرجان وتنظر إلى نظرة من هذه النظرات التى تبرىق .
وكنت لحظتها أيقظ من خيالاتى .. وأتذكر الميعاد الذى ينسا فيعقن
قلبي بشدة .

ووترت أعصابى قلم أستطع النوم .. وظلمت أعملى فى الظلام ..
وأنقلب فى فراشى .. وأقلعل .. وأنبغ .. ثم أحاول أن أطرد كل شئ
من دهنى لأنام .

وتصمت أصوات الليل الخافتة .. فأصبحت جليلة واضحة فى
سمعى .. وبدأت أتبع صوت قطرات الماء وهى تدق على الحوض .
وتكثك الساعة .. وطين موتور التلاجة .

وتيقظت زوحى وسألتنى إن كان هناك شئ يؤرقنى . فقلت :
لا شئ . القهوة كانت شديدة وهى التى نبت أعصابى ..

وسحبها قروح فى النوم من جديد .. وصمت تنفسها يزداد انتظاماً
وعقاً كليا أوغلت فى النوم .. ثم أحسست يذراعها يحوطنى وينام وادعاً
على صدرى .. وصمت معها ينتم كلاماً لم أتنبه .. لا شك أنها كانت
تعلم حلاً رقيقاً حيوياً ..

وسألت نفسى فى تلك اللحظة .. ماذا أريد ..

ماذا أريد بنفسى ..

ها أنا ذا الآن زوج يتمتع بزوجة عبقه وطفل يشقه .. وصحة
وشباب ومال وجاه .. وها أنا ذا أنقلب على فراشى مؤرقاً كنتخص
مريض تسلمه الحمى ..

ماذا أريد .. ماذا أريد !!

وكان السؤال صعباً .. أصعب من الأرق ..

وشعرت بالصداع ..

ونقلت رأسى جداً .. ودرعت فى النوم .. نوم قلق تشوشه الأحلام
وكلمها أحلام من روح واحد .. يحيم عليها الخوف ..

فأنا فى مرة أركب تراماً فيخرج عن الخط .. وفى مرة أخرى أركب
سفينة فتشرف على الفرق .. وفى مرة ثالثة أدخل الحمام فيسرق الحمام
هدومى .. وفى مرة رابعة أذهب الى المكتب فأكتشف انى تسيت
الحذاء .. وأنى سرت طول الطريق حافياً .. ينظر الناس فى وجهى
باستغراب .

وأنا دائماً أقع من آخر دور .. ولا أصل إلى الأرض أبداً .. وإنما
أظل أهوى من حائى فى دعر أوشك على الاصطدام والتناثر كل ذراع
فى ناحية .. ولا أجد شيئاً أسك به .. ولا أحد أنادى عليه .

وحدى .. وحدى .. فى الهواء .. بلا أرض .. أقف عليها .

لم يكن نومى نوماً .. كان عذاباً

كنت أعاني ..

وحينا فتحت عيني على ضوء النهار . وشعرت بدهاء البيت حولي .
وسمعت ضوضاء الناس في الشارع .. شعرت كأني خرجت من جيب
مظلم تحت الأرض .. وأصبحت بالراحة ..

ولكني بعد ذلك بساعة حينا وقفت أمام المرأة أنطلع الى طسولي
وعرضي وأناقني .. لم استطع ان اتس ذلك الاحساس الذي ظل يأكنني
طول الليل .. يأتي صغير .. وحيد ضائع في الدنيا .

كل هذا الطول والعرض لم يسترني وأنا نائم وظلمت أنتفض من
الحرف كطفل تركته أمه وحيدا في الظلام .

وحينا كنت أسير في المساء الى مكتب فاطمة المحامية أجل تحت إبطي
ملفات القضية التي اتفقنا عليها .. عاودني مرة أخرى ذلك الشعور .

وأحسست أني أضرب الأرض بقدمي بشدة .. وأرفع رأسي في
صرامة .. وأقطب جبیني .. لأبعد هذا الإحساس بالضعف .

وحينا دخلت مكتبها .. وقابلتي ضاحكة .. شعرت فجأة
بالارتباك ..

وسارعت إلى الملفات .. أفتحتها .. وبدأت أشرح لها القضية التي
حفظت كل تصنيفاتها .. وذاكرتها في البيت جيدا .

وظلمت تصفني ويدها على خديها .. وعيناها مسطقتان كالصباحين
الكتناتين على وجهي طول الوقت ..

وبعد فترة قضيتها في القراءة رفعت رأسي ونظرت إليها سائلا :

- هيه ... حل فهمت الان المشكلة كلها ..

ولكنها انفجرت ضاحكة .. وأغرقت في الضحك .

- لماذا تضحكين ؟

- لأنك جد جديدا .. ولو قدر لك أن ترى نفسك لضحكت أكثر

مق .. إنك تدخل متجها وفي يدك الملفات وكأنك النائب العام ثم
غبط الملفات على المكتب .. وتفتحها وتقرأ بصوت عالي .
ثم تسألني فجأة كأني تلميذة .. وتقول .. هيه - هل فهمت .. أراهن
أنك لم تفهم كلمة واحدة مما قلته .. لقد أضحككني يا شيخ ..

وترأخت أعصابي دفعة واحدة .. وابتسمت رها عني .. ووجدت
نفسی أنظر لها في استسلام .. وقد أيقنت أني اختضعت .

وأخذت أتلهي بالنظر إلى الغرفة حولي .. إلى القماش الأزرق الذي
يغلف الكرسي والأباجورة التي تتلنى على تمثال امرأة عارية .. وإلى

عيني فاطمة اللتين يعربد فيها الكلام ..

وكان واضحا أننا نحسن الإنسان لا نهتم كثيرا بأمر القضية .. وأنا
كلانا نبحث عن مواضيع أخرى نتكلم فيها .

وقلت وأنا أضير إلى الأباجورة :

- آت أيضا زينت غرفتي بتمثال امرأة عارية .. كنت أظن أن هذا
الضعف فيها فقط نحن الرجال .

- لقد بحثت عن تمثال رجل عار فلم أجده .. إن الذنب ذنب
التعاطين الذين لا يحتمون إلا النساء ..

وصبت لي الشاي في الفنجان أمامي .. وبدأت أضرب وقد عدت إلى
نفسی قليلا .. وزال عني الحرج . فلم أعد بحاجة إلى الكتب .
والكلام .. في القضية .

قضية إيه ؟

وقلت وأنا أنفقت حولي :

- مكينك جميل .. لا يبدو أنه مكان تناقش فيه القوانين .. إنه
صالح ..

- لى أحب ان أستمتع بحياتي وعملی .. إني أحيط نفسي هنا بكل

الأشياء التي أحبها.. وأنت تجد حولي كل شيء.. حتى الراديو.
وأخرجت راديو صغيراً في حجم علبة السجائر.. وأدارته فخرجت
منه الموسيقى.

- يا ترى بيتك جميل هكذا مثل مكتبك؟

- أجل بكثير

- إن زوجك رجل سعيد.

وضحك ضحكة جافة.

- زوجي.. لقد طلفت زوجي من زمان. إن الحرية أجل ثمن في
الدنيا.. هل جربت حياة العزوبة؟
لا

- أنت مسكين.. لقد ضاع نصف عمرك.. إن أجل ثمن في الحياة
أن تعيش لا تعرف ماذا يحدث لك غداً.

- ألا غافقين من كلام الناس.. وأنت تعيشين هكذا.. زوجة مطلقة
في بيت طويل عريض وحدك حرة كما تقولين؟

- ومن هم الناس الذين أصعب حساسهم.. كل الناس كذابين..
ثرناورن منافقون نافهون.. أنا أعطى لهم المثل.. وهم يمشون خلفي..
ويقلدوني. إن كل جسارة من جاراتي تمنع أن يكون لها مكتب مثل
مكبي وعمل ناجع وزوج تطلقه وتعيش حرة مثل.. ولكنها تقول كلاماً
آخر حيناً تسأله.. لسانها يقطر كذباً وحسداً.. أتريدني أن أحسب
حساباً لمثل هذه المرأة.. إني أعيش حياة واحدة.. فكيف أتنازل عنها
لامرأة ثرناورة كذابة. ولماذا.. لجرد أن ترضى عني.. وماذا.. يساوي
هذا الرضى الكاذب.

وقاطعتها فجأة لأقول في نبرات حادة.

تولى لي.. لماذا حدث الطلاق بينك وبين زوجك.

وشعرت أنها تضايقت.. ولكنها أجابت في برود:

- لأنه رجل مفضل.. مثل كل الرجال المفضلين. يريدني أن أكون
جارية يملكها لا زوجة يشاركها حياته.. يريد أن يجرى ويلهو على كيبه
ثم يعود إلى البيت ليجدني واثقة عند قدميه.. أقول له يا حبيبي..
يا ميمودي.. وكأني أرضى وقف مكتوبة باسمه.. يتركها خرابة مائة سنة
ثم يعود فيجدها ما زالت خرابة..
وقلت لها بهدوء:

- هل كنت زوجة مخطصة؟

فأجابت وهي تضحك ضحكة متضربة:

- إن الإخلاص ثمن لا ادعي له.. إنه أحياناً يلازم المرضي
والمقصد.. وأصحاب الأعمال الذين لا يجدون وقتاً ليعيشوا
ويستمتعوا..

ثم انتفضت فجأة لتقول بغيظ:

- ولماذا تطالبون المرأة وحدها بأن تكون مخطصة؟.. لماذا لا تطالبون
الرجل بالإخلاص.. لماذا تنفرون له عندما يخطئ ولا تنفرون للمرأة؟
- لأن المرأة تعمل ثمرة خطئها.. لأن خيانة المرأة معناها طفيل
غريب في العائلة..

- وخيانة الرجل معناها أيضاً طفل غريب في عائلة أخرى..

.. عائلة أخرى بعيدة عنا..

- يا سلام.. ألا تحس بأنك تستحق التسقي وأنت تقول هذا الكلام
الفارغ؟

وعادت إلى الضحك وأردفت في دلع:

- وإذا كانت الأطفال هي كل المشكلة.. فيمكن أن تلجأ إلى موانع

الحمل..

- هذا هو الاحلال بينه .. تصوري زوجة تحمل في حقبة يدها
موانع الحمل كما تحمل أصابع الريح ورجاجات البارقان .. هل يمكن
كذل هذه الزوجة أن تهم بعمل أو بيت ..
.. ولماذا لا تقولون هذا الكلام لأنفسكم يا رجال .. ألا تعملون أمثال
هذه الأنبياء في جويكم أحياناً .. ألا تعمل أنت الآن في جيبك أحد
هذه الـ ..
دعني أفتنك ..

وهجمت على فجأة لتفتني .. وأجعتني المفاجأة .. فتركها تعيث في
جيري وتخرج الماديل .. والمهفظة .. وتفتني جيئاً جيئاً بدقة ..
وأخيراً سمعتها تقول في رقة ولفظ :
.. يا لك من طفل وديع صغير .. إنك لا تحمل سوى قطعة
شكولاتة .. يا لك من ملاك ..

وداعبت حدى بأصبعها .. واهر خدائى من التجمل والإحراج
وشعرت بالقيظ لأنها تعاملنى هكذا كأنى طفل .. وقلت بحفاه :
.. لا تظن أنى ملاك إلى هذه الدرجة .. إلى في الحقيقة شيطان على
طريقى أحياناً ..
ونظرت إلى بحيث :

- أحقا .. أنا لا أصدق .. ان الشياطين لا يقولون عن أنفسهم
شياطين ..

وأردفت في دلح :
- وما دمت تأكل البوبوين والشيكولاتة يا شيطان .. فاذا تشرب هل
تشرب تليو ..

ومالت على الجرس خلفها لتدعه .
- سوف أطلب لك تليو ..

- واشتد غيظى من سخرتها .. ولاحظت هى أنى متناظ .. غسكت

وقالت برقة :

- هل أنتك .. لماذا يؤذكم يا رجال أن نقول عنكم أنكم تخط
صغيرة وديعة ويسركم أن تقول عنكم أنكم وحوش .. أنتم أغبياء .. أنا
في الحقيقة لا أحب إلا القسط الصغيرة الودية ..

- هذا نلوة جنسى ..

وضمكت ضحكة خلية ..

- ليكن ششوقاً .. ماذا يعنى .. إلى امرأة نوانية معدق وبقبة ..
لا أحب علم الحيوانات .. وإنما أحب المحضرات الناعمة الفضة مثلك .
قللت بقضب :

- أنا لست ناعاً ولا رقيقاً ..

- حسناً أنت خشن غليظ .. أيرضيك هذا .. أوجوك لا تحاول أن
تكون حيواناً . إن زوجى كان حيواناً .. كان طويلاً وعريضاً ..
وغليظاً كالثور .. وكان يمشى وهو يتكلم .. وكان يمز الأرض وهو
يمشى .. ومع هذا لم أكن أحمله .. كنت أتمتر منه .. إلى لا أطيق هذا
الصنف من الرجال الذى يمتثل بمضلاحة وشعر صدره .. أنه يقزى ..
إلى أحلم برجل من نوع أشعر رجل وقيق المتساعر سماعه النظرات
مثلك .. أوجوك لا تحاول أن تلبس أمامى فروة الأسد .. إنك تنقذ
كل سحر وك تصبح شيئاً مضحكاً .

والحقيقة أنها أعاطق لدرجة أنى بدأت أضحك بكهسية . ثم بدأت
هى الأخرى تضحك .. وأخذنا تضحك نحن الاثنين في مزح ..
وماذا جيم إن كنت أسداً .. أو قطة .. ما دمت ..

وتلاقت أيدينا على المكتب ونحن نضحك وناسكت أصابعنا
بكهسية .. ونشبت كل منا بالآخر . كأنه غريق يمسك بطوق النجاة .
ورغقت ضحكنا شيئاً فشيئاً .. ولكن أيادينا ظلت متسكة .. ونظر
كل منا للآخر نظرة مليئة بالوعد .

- أخشى أن أموت هكذا وحدي أو أنام فلا أصحو من نومي أبدا .
- ما هذا التخريف ..

- البيت حولي يشبه مقبرة في هذه الساعة من الليل .
- أليس هناك أحد في البيت .

- معي الطاحية المجوز وقد سافرت البلد .

- آمنت الآن بأنك لا تستطيعين أن تملئي بيتنا وحدك حتى ولو كانت
ملك شهادة حقوق ..

- أنت مجرم .. أهذا وقت الشبهة .. أي بطنى .. إن التوبة
ستأودنى .. إني خائفة .. أرجوك .

- ألم تسترعى على الحقة ؟

- بطنى .. بطنى ..

- سوف أحضر حالا ..

- وليست ثيابي بسرعة وهرولت خارجا .

- وفي الطريق كان قلبي يندى بعنف في ضلوعي .. وكنت أسأل نفسي
ما معنى كل هذا .. هل أحب فاطمة .. هل أحبها حقاً .. وهل هذا هو
الحب الذي يقولون عنه .

- لا أنكر أني أشعر بسعادة في الجلوس الى جوارها .. وأنتظر مواعيدها
بلهفة .. وأرتب في ذهني كلاماً كثيراً لأقوله ثم أنساه .. وأشعر بخدر في
جسمي وأنا ألس يلبسا .. وأصحو على شوقي .. وأنام على شوقي ..
وأعيش بانتظار شيء ما كل يوم ..

- إن العقل يتمب . ما فائدة التفكير في كل هذا ..

- وكنت أدخن أغبر سيجارة في العلبة . وأقنع نفسي بأنه لا داعي
للتفكير في شيء وأدق الجرس .

- وفتح لي نموذجي ..

- ٣ -

كانت الساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل .. وأنا مهراة .. أنظر
بعينين مفتوحتين الى النافذة التي تشبه بوازا أسود حول حمام مرقشة
بالجوم ..

- وكان الهواء راكداً لزجاً .. والجو حاراً .. وقد غففت من ثيابي حتى
أصبحت ألس جلباباً رقيقاً على اللحم .. ومع هذا لم أكن أشعر برغبة
في النوم ..

- ودق التليغون إلى جوارى وجمعت صوت فاطمة تقول في إعياء
ونبرات عطوطة :

- آلو .. أنته .. ماذا تفعل ؟

- لا شيء .. صمائية إلى الآن .. ؟ .. ما الذي يبقيك حسي هذه
الساعة ؟

- متعبة .. مريضة .. جسمي كله مهيدود .. إلى أحاذيك من قرائي
ويطفي ثواني ألاماً حادة . وقد خرج الطبيب سذ لحظة بعد أن أعطاني
حقنة ..

- سلامتك ..

- حلمي .. أنا خائفة .

- خائفة .. من ماذا ..

ودخلت فوجدت الطبيب إلى جوارها .. يحقنها بحفته ثانية .
ورضت إلى وجهها وبرقت عيناها .. وكان الطبيب يؤكد لها أنه لم
يجد شيئاً في الفحص .. وأن الفحص سببه اشتقان بسيط في الميض ..
وهي مسألة غير مهمة بالمره . ويمكن ان تتشأ من البرد أو من الإفراط
في الشراب .. وكانت رائحة الشراب تفوح منها فثلاً .
وخرج الطبيب ونيت إلى جانبها .. وكان وجهها .. مسعداً ..
وكانت أساريرها سترعية في راحة .. وقد زال الألم تماماً وحلت محله
شفاعة تبدو في عينيها .. وركنى فيها .. وهما يرتعشان في غيب ..
وأمسكت يدي .

- يدك دافئة أدفاً من يدي .. هذا يدل على أن قلبك بارد .
- ويدل أيضاً على أن عقلك قاض .
- سوف أطلع لسانك الطويل هذا .. سوف أقصه بهذا المقص
يا طفل الصنبر .
وغمرت في بعينها ..
- أما زلت تحمل نيكولاته وبيون في جيبك .. أين كنت تتسليطن
اليوم ..

- لا شيء يؤذي غير المرض . لقد كنت نائمة منذ دقائق ساكنة
ومذعورة مثل الغار .. ما كان يجب على الطبيب أن يطبق هذه الحقنة .
- اسكت انها حقنة لذينة جداً .. لقد قال الطبيب انها هي الحقنة
التي يأخذها المساكين .. وأنا الآن مسطولة .. وبسيطة .. والدنيا
أمامي مثل حضن كبير حلو ..

- إنها ليست الدنيا التي تزغلل عينيك .. إنها الرجل الذي يقف
بجوارك .

- ها .. ها .. ها .. أنت مغرور .. أنا لا أحب الرجال .

- ماذا تحبين ادن .

- أحب البنين والنيكولاته .. ها .. ها ..

- إذا كانت حقنة عنبر واحدة تجعلك تتكلمين هكذا .. فإنك سوف
تصبعين مدمنة خطيرة .

- أنا مدمنة خطيرة لكل شيء .. أنا مدمنة لحظات سعيدة .. مدمنة
دنيا .. اسمع .. إن الدنيا مثل الأفيون تماماً .. طعامها يصيب الجسد
بالخدر والمهودة .. ورواتها العظيمة تنوخ .. وشعها تسطل .. وتسميها
يدغدغ الخلدود .. وعنها يسكر .. وحرها يسكر .. وكل شيء فيها
يسكر .. الدنيا مخدرات .

- أنت أخطر ما فيها من مخدرات

- اسمع .. إلى أحياناً أكون تشوانة لدرجة أنني أنسى أن أجري
عريانة في الشارع .. لا .. لست عريانة تماماً .. وإنا بالمأويه ..
وأعرج على الحشيش .. كنت أقول هذا لزوجي .. وكان زوجي يقول
عني امرأة سافلة .. ويعطيني محاضرة في الأخلاق والآداب العامة ..
أنتم يا رجال مغفلون كلكم مغفلون .. كل شيء عندكم عيب وحرام ومحل
بالعرض والشرف .. الحياة كلها في نظركم شرف رجل .. أية جريمة
عندكم تختصم .. إلا أن يتلوت عرض أحدكم وتنتهي أخته عين
أو تلمسها يد .. عمركم يضع في هذه الحسرة .. مغفلون .. أنتم
تضموننا في أصرحة وتبيدوننا وتتركون بنا .. ونحن بشر متلهم تماماً ..
نتعرق على نسة ونظرة وقيلة .. ونكلفكم ملايين الجنيهات سنوياً عن
روح ويودة وماتيكير ونحول النوارع إلى معارض اغراء تحت جسمكم
وبصركم .. وأنتم تتأججون بالغيرة لأنكم حق لا تفهموننا .. أننا ليس
لدينا فكرة إطلاقاً عن حماية العرض المقدس هذه .. ولا نفكر إطلاقاً
في أن نحصى شفاهنا من القيلات ونحصى أجسادنا من النظرات .. نحن

تفعل هذا لتضحك عليكم .. ثم تعيش حياتنا الخاصة من ورائكم كحب وشتي .. يا دلايل .. يا بلهاء .

- أنت أسفل امرأة عرفتها .. ولولا أنك تقولين هذا الكلام وأنت سكرانة ومضطوبة لخربتك ..

- يا طفلي الصغير .. أفي لم أكن في وصي أبدا .. كما أنا الآن ..

- أنت تحرفين .. ولو كنت زوجتي لشتقتك .

- لو كنت زوجتك .. لما علمت شيئا عني .. لأتلك أبه .. ولأنفت عرك في عبادتي .. وإغلاقى الواجه والأبواب حتى لا تطولنى الشمس ولنضيم حياتك وعقلك في الغيرة .. على مدامك المحسنة .. فاطمة ونظمت الكلمات الأخيرة في خلاعة وتبذل .. فقلت لها في غيظ ..

- أنت أحبط زوجة في الدنيا .. هل هذا هو التقدم للنسوة الذى حلمنا به في المرأة المتعلمة .

- لا بد أن تفعل شيئا لتغيروا .. إن الحياة أوسع وأجمل من هذه النظرة التناسلية التى تعيشون فيها ، والنظافة التى تحملون بها . وأنتم أقنر خنازير .

واسجد في الغيظ في تلك اللحظة ونسيت أنها مريضة وأخذت أهرها بعنف .

- أنت الخنزيرة .. أنت أكبر خنزيرة .

وأقلت متى وأطلقت صيحة هستيرية مجلجلة . وكان واضحا أنها سعيدة جدا ببياعى وغضبى . ولكنى أسكتت نفسى وعدت إلى هدوئى .

- أنتم أطفال ! أنزلكم المقاتق إلى هذا المسد . لا قائمة من إصلاحكم .. حسنا يا شيطان الصغير .. لا تنضب .. نحن نساء طاهرات محصنات عفيفات لا نرغب ولا نشتهي ولا نحب ولا نحب ولا نحس . نحن لفاقة عرض موضوعة في صرة . نحن نترغكم المصون .

وضحكت فجأة في خلاعة وقالت بصوت هدير .

- نحن نترغكم .. ها .. ها .. أليس هذا مصحكا .. حرصكم على أن تكون نحن نترغكم .. إن نترغكم أعالكم يا مغفلون . وليس نساؤكم أليس عجباً إنكم لا تريدون أن تقبلوا هذه الحقيقة البسيطة .. أنه لقد نبتت .. نبتت . رأسى بدأت تنقل .. حلى .. إن دماغى ثقلت جدا .. لا تتركنى أفى أخاف أن أنام غلا أصحو .. أه الفرقة تدور .. ضحك يدك على رأسى أليست دافئة ..

وأخذت يدي ووضعتها على جبينى . وتراخت أجنفاتها وبعد دقائق كانت تروح في النوم .. وأنا إلى جوارها .. وصدرها يعلو ويهبط . وأنماها تخرج مسطرة دافئة .

وكانت يدها ما زالت تثبت يدي .. وكانت تتقاذف إحساسات كثيرة متضاربة .. ولكن منظرها وهى تنام في وداعة وفلة حيلة سلسى نوري وغضبى .. فأخذت أنظر إليها في حيرة وعجب . أين ذهب الركان الذى كان منذ لحظات يقذف بالحمم . أين نامت البار التى كانت تتأجج في هذا الصدر ..

وكانت تنسك يدي في لطف ورقة .. وأحسست بالحنان ولها عنى . ونزلت يدي على خدعها وعنقها ولست صدورها ثم سمحت يدي بسرعة ونحست في يدي قشعريرة .

وتذكرت ليلة دخلقى يزوجنى .. وكيف كنت أحاول أن أحبل عقدة لساقى وعقدة غرائزى بأن أشرب الويسكى .. وتذكرت الآن .. وأنا أحاول أن ألجم غريزتى ..

كانت هذه هى ، للنسوات الحقيقية .. أحسها لأول مرة .. كاملة .

عارمة ..

ولا أدري كم من الساعات ظلت أصارع نفسي وأنا جالس في

الكرسي أذعن .

ولكني أفقت من هذا الصراع على صوتها في الفجر يمس إلى
جوارى وعينها وما تبحثان عنى .. وفراغها وما تضاني وتجذباني إلى
جوارها في ضف .

وجسما تمس وهي تحتضني :

- إنك رجل غريب .. إن جسمك بارد مثل الضفدة .
وجذبتي من عنق .. في دلج .. وغمرتي بالقبلات .

كل ما أذكره وأنا عائذ إلى بيتي هي كلماتها الأخيرة وهي تودعني
قائلة : « أنت خنزير قذر .. وستقول لزوجتك ذلك . ألم أنك ستكذب »
ومنظر وجهها وهي تقبلني في مزيج غريب من السخريه والحب هامة :
- أما زال في نيتك ان تشق زوجتك إذا ضحكتها في أحضان رجل
آخر .. أم إنك فقدت الشجاعة .. وفقدت الشرف أيضاً .
ولا أعرف بالضبط ماذا فقدت في ذلك اليوم .. ولكنني تفسرت
كثيراً .. ولعل فقدت حرفي .

ولعل شيئاً ما قد تغير في شكل ومنظرى أيضاً .. لأن زوجتي قد
لاحظت ذلك وقالت في قلق :

- مالك .. شكلك متغير .

- لا شيء .

- تيمان ؟؟

- أبدا .

- الأستاذ عزيز سأل عليك ثلاث مرات بالتليفون ..

وأمسكت بالتليفون وضربت القرة .. ورد الأستاذ عزيز في شوق .

- أهلا يا أخى .. إنت فين .. أنا أبحث عنك من الصبح .

- كنت في مشوار ..

- طيب تعال .. أخطف رجلك وتعال .

ولم أفكر في سؤاله عن سبب هذه الدعوة المفاجئة .. ورحبت بهذه
الفرصة التي تجلني عن بيتي قليلاً ..

وخرجت لثري .. لألق الباب على جدارها عزيز .. وفتح لي عزيز
بنفسه .. وقادني من يدي إلى غرفة داخلية وعرفت من الوهلة الأولى
لماذا كان عزيز يبحث عنى طول النهار .. كانت بورتنة قمار حامية تدور
رحاها في الغرفة ..

وقدمنى عزيز إلى ثلاثة لا أعرفهم .. الأستاذ فلان .. فلان ..
فلان .. والفلان الوحيد الذي أحفظ صورته الآن هو اللاعب الذي كان
يجلس في مواجهتي وهو رجل نحيل محصوص له شارب كث يخطئ فمه ..
وجلست ألعب وأكسب .. وأقرر في سعادة كالقطة التي أكلت جيداً
ووجدت مكاناً ليأ دافئاً تتمدد عليه ولم أكن أفكر في شيء .. ولم أكن
أرى شيئاً سوى الورق في يدي .. وأبوشنب المالح أمامي كالصم ..
يسبح في موجة من الدخان .

وصمت صوت البيانو أتياً من الغرفة البعيدة .. كانت تأتي تصرف ..
نفس المقطوعة التي عزفتها يوم عيد ميلاد ابني ..
وكانت الأنغام تأتي إلى أفق رقيقة حزينة ..
أين يمت هذه الأنغام ؟ ..

أه .. تذكرت الآن إنها مقطوعة .. الطائر السجين .. لفرناندو ..
وكانت الأنغام حزينة جداً .. متصالية مترقصة .. كأنها بكاء إله في
سجنه .

وقطع عزيز الصمت قائلاً :

- أنعرفون لماذا أحب القمار؟

وقلت في هدوء وأنا ألبس:

- لا أعرف.. ولا أريد أن أعرف.

وقال أبو شبيب:

- إن الله أوفاني هي التي أألبس فيها القمار.. إلى أنسى كل شيء..

زوجتي.. وأولادي.. وبيتي.. وعيلى.. وأسى ويومى وعدي أنسى
هذا هو أجل نبي في الدنيا.

- نعم.. ولكنك تنفع دمك من هذا النسيان..

- ألى أنسى حتى هذا أيضاً.

وفي الحقيقة لم أكن أعلم لماذا أحب القمار.. ولكني كنت أحس أن
كل لحظة أثناء اللعب تبدو لحظة مهمة جداً بالنسبة لى.. وهذا في
نظري سبب كاف لأحب أى شيء..

وضايقي أن أفكر هكذا.. وفقدت شهيتي للمب.. فأهديت
الجنينيات المشرقة التي كسبتها لعزيز.. وجلست وحدى بعيداً.. أخرج
عليه وهو يمشيها ثم يكسبها.. ثم يمشيها من جديد.. ثم يكسبها.. ثم
يمشيها.. ثم يكسبها.. ثم يمشيها.. ثم يكسبها.

وكان قد بدأ يصبح عصيباً.. وأصبح يريد أن يتخلص منها
فيمشيها إلى الأبد.. أو يلق بها من اتاعفة.

واستبدت في الرغبة في الضحك.. فصحك بصوت عال.. والتفتت
إلى أريسة وجوه في وقت واحد.. في دهشة.

ولم أكن أعرف أن منظر القمار من بعيد يبدو مضحكاً إلى هذا الحد.
ولكنه في الحقيقة كان يبدو لي في تلك اللحظة مضحكاً جداً.

وأشد ما كان يضحكني هو منظرهم.. وسحبهم المقلوبة.. وأعصابهم
المتدودة.

ماذا يريدون بالضبط؟

وماذا أريد أنا أيضاً؟

وعاد الطائر الجبين يقرء.. بأنعامه المزينة.

وانقضى قلبي بشدة كأن يداً من حديد قد أمسكت به واعتصرته.

حتى كادت روحي تخرج مني.

وأحسست في تلك اللحظة أني في حاجة إلى صاحبي لأكلمهما.
وأبكي على صدرها كالطفل.. وأقبلها.. وأحتضنها.. وأفقد وعي بين
ذراعيها..

واستأذنت من الجماعة لأتصرف.. ونظر إلى عزير نظرتي إلى رجل
غريب الأطوار.. وقلت له مازحاً:

- إن جنيناتي العشرة.. جنينيات منحوسة.. إنك لن تستطيع أن
تكسبها.. ولن تستطيع أن يمشيها.. ولن تستطيع أن تنفقها.. إنها
كاللصبة الفرعونية لا حل لها..

وخرجت..

وصافعت أبق نسيات الصيف المليئة فأترت أن أنسى وتركت عربي
في الجراج.. وسرت استأف الهواء في خيائيني.. وأهز يدي جانبي..
وأنظر إلى الناس.. وكل واحد فيهم يسير ملفوفاً في مشاكله كأنه دنيا
صغيرة.. لا يفتق من اللحظات.. ينتظف حوله ما هو واحد يصرقه..
وأهلاً وسهلاً.. كنت حين.. مضى وقت طويل لم ترك.. لا بد أن تزورنا يا
أخي.. ثم يعود فيقطن في دنياه ويغلق باب قوته.. ويمرر إلى الأعناق
البيدة في نفسه.

ويمرر.. يمرر إلى أين؟!!

وتشوقت إلى شاطئ..

إلى حبيبي.

كنت في حاجة إلى لحظة راحة .. لحظة سكون .. لحظة عدم تفكير في أي شيء ..

ويبدو أني مشيت كثيراً . لأنني بدأت أحس بألم في عضلات ساقاي فانهيت إلى بيت فاطمة .

وكان أول شيء فعلته حيناً وصلت أني رفعت الساعة وطلبت زوجتي وقلت لها أني سأنتهي لمدة ثلاثة أيام في سفر إلى البلدة لأعمل ضرورية .

وكانت فاطمة واقفة إلى جوارى تصحك بصوت خافت وحيناً وضعت الساعة قالت في سفرية :

.. لقد أصبحت خنزيراً عريقاً في الخنزيرية .. إنك تكذب دون أن تطرف لك ومنش .. هذه قدرة غير عادية .

وكانت واقفة بقميص النوم .. أمام المرأة .. وكانت تبدو كحيوانة .. حيوانة لم يهدب فيها النقافة شيئاً . وإنما أطالت أطرافها وشحذت غرائزها . وأعطتها القوة .. والجراءة .. والوقاحة .. وتركت المرأة لتقبلني في في ..

وقلت أذكرها :

.. ماذا ستفعلين في قضية الوقف ؟

فأجابت ضاحكة :

.. إن الوقف هو أنت وقد حللنا الوقف .. لم تعد خرابة موقوفة على زوجتك كما كنت زمان .. وإنما أصبحت ملصبة ككرة .. أليس هذا انتصاراً رائعاً .. هل رأيت دفاعاً يفوز بالحكم بهذه السرعة ؟

.. لا أظن أن الأمر قد تغير كثيراً .. فقد تحولت من خرابة موقوفة على زوجتي إلى خرابة موقوفة عليك .. ومعنى هذا أننا سوف نحتاج إلى محامية أخرى لتحل الوقف من جديد .. إن المشكلة ما زالت باقية ..

.. آه .. ماذا تقول .. إلى أين أذهبك .. وأنتنذي على حملك إذا حدث

هذا .. إن القضايا عندي تخرج من يدى إلى القبر قبل أن تخرج إلى يد أخرى .. إن المرأة التي تتأقمنى لم تخلق بعد .. هل تسمع .

.. هل أفهم من ذلك أنك تطالبيني بأن أكون غلصاً ؟

.. إلى أفهم شيئاً واحداً هو أن أحبك .

.. وهل يصح هذا أنك تكونين غلصاً لي ؟

.. آوه .. هذه مسألة أخرى .

وجديتها من شعرها في غيظ ..

.. تعالى .. هنا ..

وظرت إلى ثم ضحكك ..

.. يا صغيرى .. إنك تصيح راءاً حيناً تنضب .. إلى أموت في

غضبك ..

وراحت يعلني وهي تهمس :

.. إلى أعينك .. أنهرك فقط .. أنت تعلم كم أحبك ..

وقبلتها في شفتيها وأنا أقول :

.. أنت امرأة مجنونة عاماً .. وأنا أحبك لأنك مجنونة .

.. يا شيطاني .. يا طفلي الصغير الجميل .. يا حبيبي .. يا جنوي .

.. أحبك .. أحبك .. يا أحط امرأة في الدنيا .

.. وأنا أعبدك .. يا أحط رجل في التاريخ

.. يا حيوانة .

.. يا مكين لماذا تبدو دائماً مسكيناً حتى وأنت تقسو وتستم .. لماذا

تبدو عينك مسكينتين وأنت تكذب وتغطي وتأنم .. لماذا تبدو يدياً تساً

دائماً .. لماذا لا يفارق الأمل والحزن عينيك .. لماذا تبدو طفلاً شقياً

يتي . إن ضحكك يفقد صواهي كم أتمنى أن أفهمك . كم أتمنى أن

أسمعك . لماذا تبدو قلقاً مشتبهاً هكذا . ماذا تريد . . ها أنا ذا بين يديك .
أقتنى ولكن لا تنظر إلى هكذا . إنك تنظر إلى كأنك لا تعرفنى . تنظر
إلى بلا عقل . بلا أمل . ما الذى يمتص قلبك . ما الذى يورع خواطرك
هكذا : ما الذى يبيل تفكيرك ؟

وأخذت تهزى بنسمة :

.. أنظر إلى .. إلى أنا .. لا تنظر هكذا كأنك تعصق فى الهواء ..
حلمى .. حلمى ..

.. ماذا أفعل وهذه هى حقيقى .. ماذا أفعل .. أنا مسكين
فعلاً مسكين جداً .. جداً ..
وبكيت ..
وبكيت بحرقه على صدرها ..

- ٤ -

كانت فاطمة تجلس وسط الغرفة ملفوفة بقوطة وقد خرجت ثوبها من
الحمام .. وتسرحها كله مبتل ومرجل ومقصوص إلى فوق .. وهى تفكك
وتسرحه وتضع فيه البنسات .. وتظهرها إلى ناحيتى .. وأنا فى الفراش
يجثم على أنفاسى الملل .. وأتمنى من أعماق أن تتركنى وحدى وتذهب إلى
أى غرفة أخرى ..

وسمعتها تدننن بفمها .. ثم تقوم وتذهب إلى المطبخ . وتنفس
الصدام .. ونسيتها تماماً .. وقت .. لم أنذكر أنها معى إلا حيناً أيقظتنى
وفى يدها كوب من عصير البرتقال ..
وكانت عيناها طيبتين ودعيتى .. وقد انطفأت منها الشراسة
القديمة .. وصل عليها خضوع أليف .. وناولتنى الكوب .. وقبلتنى فى
خدي وقالت فى رقة .

.. أحببى يا حلمى ..
فقلت وأنا أغتصب الكلمات اغتصاباً :
.. نعم .

وشربت الكوب فى جرعة واحدة ..
ونظرت إلى فى عيني .. ولكن أبصت عيني عنها ..

وقالت في نبرة حزينة :

- أنت لا تحبني .

مقلت في هدوء وقد أصبحت أنه لا قائمة من المص في الكذب :

- نعم ..

- إذن لماذا فعلت كل هذا ..

- لا أدري .

وسكنت لفترة طويلة ثم قالت في ألم :

- أئن ملقي بعد الآن ..

ولم أعرف لماذا أجاب ..

ولأول مرة منذ عرفت أنها رأيت وجهها المتكبر يتضعضع أمامي ثم

يتهاوى في بكاء مر ..

وغضبت من خلال دموعها :

- ألم تشعر معي بلذة .

فقلت في صدق ..

- شعرت بالبلذة التي لم أشعر بها أبداً في حياتي .

- إذن لماذا تتركني هكذا .. وماذا كنت تريد لتعطيني .. وتضعضعت

الكلمات في لها من جديد ..

ولم أعرف لماذا أجاب .. ولا ماذا كنت أريد منها .. ولا ماذا أريد

س نفسي ..

- هل أنا قبيحة .

وأزاحت الغرطة المبتلة لتكتشف عن جسمها الجميل المندى بالماء ..

ويحت يميني في جسمها .. ذلك الجسم الذي كان يفتني ويصيبني

بالدوار كلما لمسته .. وأحسها يذراعي .. ولكي لم أحس بشئ

إطلاقاً .. ويحت في غيبتها عن المرأة الجريئة المستهترّة الوقحة التي

كانت تنتفض بالتحدى ولكي لم أجد غير امرأة متكبرة .

وحيل إلى من نظرتها أن عمرها قد زاد عشر سنوات ..

ولم أعرف ماذا أحس بها ذات يوم .. ولا ماذا أكرهه فيها الآن .

كل ما أعرفه اني كنت أصغر بالملل .. وبجاجة شديدة إلى أن أصبح

وحدى ..

أما هي فكانت تنظر إلى في أمومة وسنن وترت على كتي قائلة :

- أنت مسكين ..

وتبكي وتصح دموعها .. وتغصم ..

- ولكي أحبك .. ولا أقوى على فراقك أبداً . أبداً .. ولم يحدث

أن أحسبت رجلاً كما أحسبتك .. ولا أعرف ماذا أفعل لتعطيني .. ماذا

أفعل .

وكفكت دموعها وهست في حيرة :

- أريد أن أعرف ما هو الحب . منذ أمام كنت ألهو معك كما ألهو مع

أي رجل .. كنت في نزوة شقاوة .. وكنت أنسل .. وأقضي وقتاً

كعادي .. دائماً . وما أكثر الأوقات التي قضيتها كامرأة مطلقة فاضية

ليس وراءها مسؤوليات ولا مشاغل .. وكانت أوقاتي تنتهي .. وتنتهي

مهما تزوانيا .. ولكن ها أنذا الآن أمام إيساس آخر تماماً .. وقت

لا يريد أن ينتهي . ونزوة لا تريد أن تسبح .. ماذا حدث لأحبك ..

وما هو سر هذا الصلق الذي يمدني .. وهذا أنت جالس أمامي ..

صخر ملول . تنأفد .. وتكاد ترتفضي .

- وهذا تحبني .. أنه ليس حباً .. ولكنه كرامة مجروحة .. وأتوبة

سهية . أنت تريد أن تدني في هذا الوقت على أمل أن تنتهي إلى

نهاية تصفك .. إنه ليس حباً لي .. ولكنه حب لنفسك ..

- أنت مسكين .. أنت لا تصدق حتى هذه الحقيقة البسيطة .. إلى

أحبك .. ماذا أفعل لتصدقني .

- أنت مدمنة لحظات سعيدة ليس إلا .. أنت مدمنة دنيا .. مدمنة
عصيرات أسما الرجال .. أليست هذه هي فلسفتك وكلارك بالحرف .
وها أنت تقولين الآن أنك تحبينني وتودين حيا .

- إلى أحسن بإحساس جديد .. لم أعرفه أبدا ..

- أليس من الطبيعي أن تشك دائما في الانتباه الجديدة .. وخصوصاً
حيث تكون غير طبيعية وغير متمشية مع شخصياتنا ..

واحق أني كنت أصغر بنى ما في شخصيتها لا أراح إليه . شئ غير
طبيعي ..

لم تقسو اللذة الجسدية التي جمعتنا ثلاثة أيام متوالية على أن تتغلب
على هذا الشعور .. وظلت علاقتي معها بالجسد وحده .. بيننا وروحي
تجم بعيدة تافرة ..

وكانت لذاتي يعقبها الضيق والنهم والموان .. لأنني تركت جسدي
يسوقني ويجري كالعادة ..

وكنت أفقح أحيانا .. فأفنى أن أخرج .. أعرب ولو عن التافهة .
وحينا ضففت في لحظة .. وبكيت كالطفل .. وكشفت لها عن
عذائي .. خجلت ..

خجلت جداً كأنني تعربت أمام إنسان غريب لا أعرفه ..

وأحسست بما هو أكثر من الحجل .. بالكراهية .. وبالنفور منها لأنها
رأت ضمني هكذا غلسة .. وساورتني الرغبة في الفرار ..

ولم يعد وجودها حولي يسعدني .. وإنما أصبح يقضي بي إلى توترهم
لا أدرى سببه .

أنا مسكين .. نعم مسكين .. مسكين .

ولكنها إنسانة غريبة لا أعرفها .. فلماذا تدخل غرفتي الخاصة ..

وتنكس في أدراجي .. وتعت في نفسي .

أنا لا أريد عطفها .

وكانت تبكي في هذه اللحظة .. ولكن لم أكن أسمعها جيداً .. كنت
أسمعها بأذن فقط .

ولكنها لم تفقد الأمل . وسمعتها تقول في مرارة ..

- هذه أول مرة في حياتي .. يفعل بي رجل ما فعلت ..

وضايقني هذه الملاحظة .. هل تريد أن تفهمي أنها كانت متواورة
من ..

وعادت تقول في مرارة :

- كنت أنا التي ألهو بالرجال .. كنت أنا التي أرفضهم .. وأكسر
قلوبهم .. ماذا حدث لي ..

وأخذتها الكبرياء فجأة فبهت واقفة ثم تركت الغرفة .. وشابت فترة
طويلة عادت بعدها بكامل ليسها ووقفت تضع الروج أمام المرأة ..

وهي تقول لي جفافة :

- أنا أكرهك .. ومن أنت حتى أحبك .. أنت رجل مثل أي
رجل .. إلى أستطيع أن أعود كل ليلة بحفنة من أسنالك ..

ثم ضحكت ضحكة رابة وأردت :

- هل صدقت حين قلت لك أني أحبك .. إلى أضحك عليك .
وتلك عاداتي دائماً حين أريد أن ألهو .. فأنتم لا يعجبكم إلا الكذب ..

لأنكم أنتم أيضاً كذابين وعواطفكم كاذبة ..

وسكنت فجأة لتقول :

- أنظر أن هناك في الدنيا شيئاً اسمه حب ..

وأجبت في إخلاص :

- لا أدرى ..

- هناك ليالٍ كذلك التي قضيناها معا .. يذهب بعدها كل واحد إلى حاله .. ولا يوجد شيء غير هذا .. أما بقية الأنبياء التي يروى الناس فهي أكاذيب .. الوعود أكاذيب .. الصوافط أكاذيب .. الإخلاص كذبة تستبدوننا بها لتكون لكم طُولى حياتنا ثم تظلمون أنتم على كيفكم ..

وأحسست أنها عادت فأصبحت فاطمة .. التي عرفتها .. وأحست أيضاً .. أنها تكذب .. وأنها أيضاً كانت تكذب .. وأنها دائماً تكذب ..

وإن هذا الشيء الغير حقيق فيها هو الذي ينفرد .. وإن هذا الشيء هو المسافة الشاسعة التي ظلت قائلة بيننا .. والهوة التي لم تستطع لفة الجسد أن تمر بها لتتوحي بيننا أواخر الحنان والمودة .. ونظرت إليها .. هذه المرة في عطف .. فقد كانت هي الأخرى مسكينة .. وكانت تضطجع تسعها في المرأة .. وتضيق اللادن في صوت مسوح .. وتطرقع بأسنانها وهي تضخ .. لتحدث صوتاً .. وكان سكوتنا قليلاً كريهاً .. وكان يشوش على أذاننا أكثر من الضججة ..

وقت من الفراش .. وبدأت أردتي تبالي ..

وحينما نظرت إلى المرأة .. لم يعجبني وجهي .. كان يبدو ليدياً وتذكرت اللحظة التي دخلت فيها منذ ثلاثة أيام حينما نظرت إلى وجهي في نفس المرأة .. وكان يبدو مشحوناً بشيء آخر .. أمل .. أو حلم .. أو نشوة

كان أجهل بكثير من الآن ..

ونظرت إليها .. كان وجهها هي الأخرى معاً ..

وانعمتها إلى الباب في وقت واحد ..

كان كلانا يشعر برغبة في الخلاص ..

وعند الباب تصافعتا في برود ..

ثم تبادلنا نظرة طويلة .. هي مزيج مختلط مشوش من كل المرات والآلام التي أحسستها بها طيلة هذه الأيام الثلاثة ..

وبقيت لحظة صامتتين ..

ثم انصرفت مسرعة ..

وخرجت لأمشي بدون وجهة .. وأنا أشعر في داخلي بحسرة لا تنفع لها ..

وتذكرت ميمادي مع الخواجة مئري .. التاجر الصجوز في البورصة ..

ونظرت إلى ساعتي .. كان باقياً على الميعاد نصف ساعة ..

ومشيت في هدوء في طريق إلى البورصة ..

تري ماذا يريد مني الخواجة مئري ..

وفي البورصة كان مئري واقفاً ينظر في ساعته يصعبه وينظر إلى الباب .. وحينما رآني تهلل وجهه وأخفق تحت إبطه .. وخرجنا .. وسألني عن مشاريعي وعن حال الزراعة والأرض في الصعيد .. وقلت ..

- الأحوال بخير يا خواجة ..

فضحك وهو يجاوبني ..

- آتت دائماً تتأديني يا خواجة .. الظاهر إنك تعتقد أنني خواجة صحيح ..

- إن مظهرك خواجة فعلاً ..

واستغرق في الضحك ثم أردف :

- يا حبيبي أنا صعيدي ابن صعيدي .. يظهر إنك لم تنهض إلى

الصعيد أبداً .. إنهم هناك يسمون الذى يلبس بدلة خواجه .. لقد عشت فى الصعيد أربعين سنة .. وفى ذكريات مع والدهك حينما كنا نكافح معاً هناك أيام الشباب ..

وأخذنى إلى مكتبه .. وأكمل سيجاراً .. وبدأ يتكلم فى نبرة جادة .
- لقد استدعيتك لأعرض عليك فكرة مشروع نشارك فيه سوياً .
إنى أفكر فى افتتاح مكتب للتصدير والاستيراد برأس مال ثلاثين ألف جنيه .. ما رأيك ..

ولم أجاب .. وإنما أخذت أفكر وقال هو ..

- طبعاً انت فرحان بالقاديين التى ورتبنا .. وكل هيك أن تنام عليها مثل كل الأعيان .. إسمع كلامى إن الأرض لم تعد وسيلة للمكسب إن مكسبها الآن تعباً .. وخصوصاً لمن يؤجرها مثلك .. إنى أعرف الصعيد وأحواله .. إننا الآن فى سنة ٥٩ والأزمة فى قتها .. الفلاح يستأجر الأرض الآن ولا يسد شيئاً من إيجارها لسبب بسيط لأنه مدين بكل شئ .. مدين بسقى الأرض لصاحب وإبور الماء ومدين بتسميدها لوكيل شركة عبود ومدين بزراعتها ليحك التسليف حتى محصولها يباعه سلفاً بالخس للعرابي على سلفة عشرة جنيهات يعيش بها .. وفى النهاية وبعد كل هذا الكبح يكسح النيل زراعته ويفرقها .. ماذا تستطيع أن تفعل انت أيها المالك مع مثل هذا الفلاح .. إن كل ما تقدر عليه هو أن ترفع عليه قعينة إخلاء .. ثم تأخذ حكماً بالإخلاء .. ثم لا يبعد الفلاح حلاً سوى أن يطلق عليك الرصاص .. أو يستأجر عليك الخط وعواده .. وهذه آخره الأرض .. وشاكلها ..

إنك لا تعرف الفلاح فى الصعيد .. إنه ما زال يستشير حماوته كل يوم وهو ذاهب إلى السوق .. وسأله هل يبيع القمح أم لا يبيعه .. فإذا رفضت يرجلها .. عاد أمراجه ولم يبع شيئاً ..

وأنت تريد ان تضع رزقك وعمرك وأرضك فى يد هذا الفلاح .
وتنتظر أن تصبح غنياً .. كلام فارغ .. اسمأنا نحن .. نحن جبرتنا من قبلك كل هذه الأشياء .. إن سر الفنى فى التجارة .. ليس فى الزراعة .

- وماذا تريدنى أن أفعل ..

- تنخلص من هذه الأرض النصب وتشتغل معنا فى المكتب .

- وإذا لم نجد شيئاً نصدره أو نستورده .. وأنت تعلم ظروف التجارة الخارجية وقبورها ..

فضحك ضحكة صفراء .. وقال :

- نبيع أذونات الإستيراد نفسها .. وتاجر فيها .

فقلت فى تردد :

- ألا يعتبر هذا عملاً غير قانونى ؟

فضحك ضحكة أكثر اصفراراً وأردف ..

- أى شئ حولك قانونى .. إن كل شئ غير قانونى .. إن المال الذى تعيش منه غير قانونى ..

إن المائة فدان التى ورتبنا عن المرحوم والدك .. كان شراً على يدى .. وكانت نقودها من ألعاب البورصة التى قنا بها بالاشتراك مع سمسة فاروق وانتهت بإفلاس أكبر البيوتات التجارية .. والحكاية كانت لها صدق فى كل الجرائد .. ولم تكن قانونية بالمرة .. لقد كتبنا عقوداً بأكثر مما نملك من أرصدة قطنية .. وهذا تزييف .. وهكذا ارتفعت الأسعار بالكذب .. وكسبت الأوف الجنيئات والفدادين .

ويظهر أنه لاحظ المرح الذى بدأ على وجهى فأسرع يقول :

- وهذا حال التجارة دائماً .. ليس فى التجارة شئ اسمه قانون .

التجارة فى حقيقتها هى تنظيم النصب .. والإبراء بعقد الصفقات على

الورق فقط بدون شقاء .. وبدون عرق ..

حيثا يكون لك مكعب استراد وتصدير فإنك سوف تشارك في ربح
المصنّع وبيع الدكان .. دون أن تعمل شيئاً أكثر من أن تجلس على
مكتبك وتحرر عقوداً .. أليس هذا أفضل من المناكفة مع الملاحين
للمدين في الصيد ..

إن النصب في كل مكان حتى في الزراعة .. وأنت حيثما تقاضى
فلاحاً مديناً لا يملك سوى فزاعبه ويخرجه من أرضك .. ألست نصيباً ؟
إن النصب في كل مكان .. يظهر إنك جديد على أمور الدنيا ..
إن الدنيا يا حبيبي نصب في نصب ..

فكر في المشروع الذى عرضته عليك .. لقد كنت أحسب أباك
وأتفاهل بالعمل معه .. وأنا أريد أن أتاومن معك .. سوف أتركك يومين
ثم أكنمك مرة أخرى ..

وصافقنى .. وأوصلنى حتى الباب ..

وخرجت .. وكل شئ يدور في دماغى كالعادة ..

وكان الحديث القصير الذى تبادلته مع الخواجة مثرى صدمة
لأعصابى ..

فقدت الكثير من ثقى .. وإيمانى .. دفعة واحدة ..

وأحسست بالقسوة الشديدة ..

كان كلام الخواجة مثرى فيه قسوة .. سودت الدنيا في وجهى ..

كان فيه اتهام لوالدى .. ولثروقى .. وللنعم الذى أرحم فيها ..

لا فائدة .. الدنيا نصب في نصب .. تماماً كما تقول غاطمة ..

هل صحيح أن الدنيا نصب في نصب .. ؟

الحق أنى لم أجد حجة أقيّمها على كلامه ..

أنا نفسى كنت أقوى إبيات لهذا الكلام .. فقد ثلاثة أيام وأنا أخون

زوجتى مع امرأة لا أحبها بدون سبب واضح ..

ومع هذا فقد كنت أشعر أن كلامه كذب .. كذب .. الدنيا ليست

شرّاً كلها .. ولا أنا شرير كل ..

القلق يهزنى في داخلى .. أنا أتأذّب ..

كلنا نتعذّب .. ونبحث عن حل على قدر فهمنا ..

وذهبت إلى بار ماسبيرو .. وطلبت كوباً من النبيذ .. وكانت الوجوه
حولى تثبت لى إلنا جميعاً مساكين ..

كان كل واحد يمحلق في الهواء .. كأنه يطارد ذبابة وهمية ..

وجلست أحصى الزجاجات على الأرفف .. وأحصى الوقت الذى
تستغرقه الزجاجات لتفرغ .. وأحصى في دماغى عدد الشوراع وعدد
البارات .. وعدد سكان القاهرة .. وعدد سكان العالم .. وما يشربه
الناس من السم كل ساعة ..

وكانت نتيجة الإحصاء مضحكة .. خمسة ملايين زجاجة ويسكى
يشربها سكان العالم كل ساعة ..

ألا يبعث هذا على الإنفاق ..

وأخرجنى البارمان من تصوراتى ..

وهو يملأ كوب النبيذ قائلاً :

- أتعرف مم يصنعون هذا النبيذ الفاخر .. لقد رأيت العنب يتفنى في
بورديو .. كل حبة مضية .. كأن الشمس معبأة في داخلها ..

- أنا لم آت هنا لأشرب الشمس .. لقد جئت لكى أخضع ضربة على
رأسى .. أبحث لى عن نبيذ آخر مصنوع من الصمغ اللدنية ..

وضحك البارمان وترب متى صحننا به جامبون .. وهو يحس :

- وهذا جامبون طعمه كطعم القليلات ..

ووقف ثلاثة من الشسحاذين يسزفون البيانولا أمام البار وبدأوا

يلعبون .. ويصرخون .. ويضحكون .. ودخل أحدهم يجمع القروش في
قبضته وكان وجهه مدهوناً بالسبيداج وعليه لفتتان حمران ؛ وكان قد
يضحك .. ولكن عيناه كانتا حزيتين جداً .

وكان طعم الجامبون ألد من طعم القليلات في لوى . وكانت الموسيقى
سخيفة . ولكن طلبتها مرتين حتى تصدعت رأسى .. وكان البارمان
واقفاً أمامى يلوى شفتيه في إشتزاز .

- ما الذى يعجبك في هذه الدونة ..

- إن مفعولها أسرع من مفعول نبيذ الفاحر ..

- إنك لن تعرف طعم نبيذى وأنت تشربه هكذا وحده على أتنام
البيانولا .. أنت في حاجة إلى عادة هيفاء عيونها سود .. تنظر إليك
وتنظر إليها .. وإلى شئ هنا في قلبك يأكله من الداخل .

- حينما يكون هناك شئ في قلبى يأكله .. فإن كل شئ اشره سوف
يتحول إلى نبيذ .. سوف تكون المياه العادية نبيذاً .. لن أكون في حاجة
إلى من يصير لى عنب يورده ويغى لى النمس في رجاجات . سوف
أكون أنا الشمس التى تنع في كل الرجاجات .. اهد ريتا يا خواجة
على أن قلبى فارغ .. وإلى أكل بعضى .. فلهذا جئت إليك .. ولهذا
يأتيك الزبائن كل يوم . وتجيد رزقك ..

- أنت فيلسوف يا أستاذ حلمى .

- أنظر ذلك ..

- وهذا مفعول نبيذى أيضاً فهو يصنع فلسفة في المخ .. إن كل
الفلاسفة متخرجين من عندى ..

وجرعت الكوب دفعة واحدة .. والظاهر أنى كنت أريد أن أخرج
بسرعة .. واختق البارمان .. وست أن أسأله .. أين ينهب اليهودى
في الشرب . هل يصعبون أساتذة في الفلسفة .. أم يصعبون بحاي ..

وكان في الركن رجل عجوز أمامه زجاجة براندى كاملة .. وكان
يتحرك بصوت .. ويسجل سحلاً جافاً .. ويصب في جوفه الكأس بعد
الأخرى ..

وحينما كنت أعود في المساء إلى بيتى .. ويدى في جيوبى .. كنت
أسأل نفسى .. ما الذى يجعل هذا العجوز يجلس كل يوم ويفرى كبده
هكذا ..

وكنت أرى في الظلام وجهه الترابى المريض .. وأسمع سعاله الجاف
وأذكر كلام الخواجة مرقى .. بأن كل الناس وهوش .. يفسقون
بعضهم البعض .. ولا أصدق .. لا أصدق أبداً ..

إننا نقتل أنفسنا ..

نحن مساكين ..

ودخلت البيت .. وغمزى الضوء الشديد في الصالة .. واستقبلنى
زوجتى مثقلة .. وسألتنى عن حالة الزراعة في البلد ..

وتذكرت أنى كذبت عليها لأتغيب هذه الأيام الثلاثة .. وأجبتها وأنا
أعجب النظر في عينيها ..

- كل شئ على ما يرام ..

- وماذا فعلت مع علوان ..

- ومن هو علوان هذا ..

- الرجل الذى أحرق الذرة .. لقد حسبت أنك حضرت الحادثة ..

لقد وصل خطاطب من البلد وفتحته على أمل أن يكون خطاباً منك
ولكنه كان من باظر المزية يروى فيه ما حدث من علوان .. وحادث
إحراق الذرة ..

فقلت يارتباك :

- أه .. هذه الحكاية .. لقد سمعوها حينما وصلت والحالة الآن هادئة

تماماً ..

وقالت وهي تضم يديها إلى صدرى ..

- الحمد لله .. لقد كنت قلقة عليك ..

ولم يبد عليها أنها تنك في شيء ..

وكانت غرفة الاستقبال مضادة وقالت لى ان مدام عزيز عندنا ..

وأنها سهرافة عندنا الليلة لأن زوجها سافر إلى الإسكندرية ..

وصاحت : نانى .. نانى .. لقد جاء حلمى ..

وخرجت نانى .. وكانت تلبس فستاناً أسود وتضع على كتفها وشاحاً

أحمر وكان الوشاح الأحمر يلمع على جسمها الصغير كأنه لفس من

المعيق ..

وتصافحنا .. وعادت إلى مقعدها وكان في يدها بلوفر تستغل فيه ..

وكانت تنحنى على التريكو وهي تعمل ويتدل شعرها كالبارغان فيعنى

وجهها ..

ومن حين لآخر كانت تمد يدها وتزج شعرها فتبدو أهدابها الطويلة

تفتلج في اضطراب ..

وكنت أحس وأنا أنظر إلى أهدابها أنها تفكر .. وأن عقلها يشطرب

وراء تلك الأهداب ..

وقلت لأخرجها من صمتها ..

- لقد سمعتك تعزفين البيانو كأعظم موسيقية ق الدنيا ..

فرفعت رأسها الصغير وانبتسمت وتورد خداه .. وبظرت إلى في

امتان .. ولم تتكلم ..

وقالت زوجتى ..

- إنها ترسم أيضاً .. ولها أعمال كأنها رائدة .. إنها فتانة أنظر هذا

مفروض اشتغلت لى ..

- رائع .. رائع .. أين تجدين الوقت لعمل هذا كله ..

وصمتت نانى لحظة قبل أن تجيب ثم قالت وهي تنظر إلى الأرض ..

- ليس في الدنيا شيء أكثر من الوقت .. إن لى دائماً وقتاً طويلاً ..

طويلاً .. أريد أن أخلص منه ..

ورفعت رأسها لتتنظر إلى نظرة غاطفة ثم عادت تمل في سرعة

وعصبية

ولكن هذه اللحظة كانت كافية لأن أرى عينها ..

أرى الوحدة .. والفرقة .. والاستسلام الحزين الكامن فيها

وكانت تتكلم بصوت خافت كأنها تكلم نفسها ..

ولم أعرف ماذا أقول بالضبط

ولكن كنت أفتى أن أسمعها تتكلم أكثر .. ولكنها صمتت وعادت إلى

التريكو ..

وقامت زوجتى لتحضّر الشاي ..

وقت إلى البيانو وفتحته .. وبدأت أعبت في مفاتيحه ..

- أجل شيء في الدنيا أن يكون الإنسان موسيقياً .. أنا كنت طول

حياتى أفتى أن أكون موسيقياً .. كانت هذه أمنيى ..

وأخذت أعبت برهة ثم قلت :

- ألم تكن لك أمنيى .. وأنت صغيرة ..

وفوجئت بهذا السؤال ..

- أنا !!

وترددت لحظة .. ثم قالت في ودعة وهي تبسم ..

- كنت أفتى أن أكون ولداً .. فقد كنت أرى الأولاد حولى يملكون

كل شيء .. وأنا والبنات تستأذن لفصل أى شيء .. حتى إذا أردنا أن

نشرى ..

وجاءت زوجتى بالشاي .. وأخذنا نشرب في صمت .. وطلبت من

نأى أن تعزف لنا شيئاً ..

وجلست نأى لتعزف مقطوعتها المفضلة .. وكنت أقف أمامها مكتئباً

على البيانو أنظر إلى أهدائها وهي تغتليج ..

ولغى النغم في موجة من الحزن .

وسألتها : لماذا تعزف هذه المقطوعة دائماً .. ويكلى هذا الحزن ..

فقالت أنها لا تدري ..

ولكنها حيناً رفعت وجهها .. كانت عيناها مكسوتين بغشاء رقيق من

الدوخ ..

- ٥ -

كانت الشمس تنام إلى جوارى في شريط دافئ محدد يطول

السري .. وكنت أغمض عيني وأحاول الاسترسال في الأحلام الرقيقة

التي أحلمها ولكن الضوء الشديد كان يؤلم عيني وينفسي إلى أن

أفتحها .. وأفركها وكانت زوجتي إلى جانبي .. تنكلم كلاماً كثيراً

لا أفهمه ثم سمعتها تبكي وتقول بصوت متهدج :

- أنا أعلم أنك حزين من أجل وفاة أبيك .. ولكن ما جدوى هذا

الحزن .. منذ شهور ونحن نعيش بعيدين متفصلين كأننا غرباء .. هل

أعاد حزننا الحياة إلى الميت .

وأفقت تماماً على كلامها .. وبتقطت .. ومسحت على وجهي .. وأنا

أفكر في كلامها .. كلمة .. كلمة ..

هي تعتقد إذن أن عزوفي عنها سببه حدادي على والدي ..

ولم أعرف .. هل أقرح أم أحزن .. لهذا الطيبة .. وهل هي طيبة أم

غفلة ! ..

لو علمت زوجتي بكل ما حدث في الأيام الماضية .. أنقل على

طيبتها أم تبصق في وجهي ؟ !

وعنيت في تلك اللحظة أن أقول لها كل شيء .. وأن أكاشفها

بالحقيقة ولكني جيت .

ودخلت الخادمة .. وكانت عيناها واسعتين من الرعب ..
 - سيدى .. سيدى .. الباب يخطط على شقة عزيز جازنا من
 الصبح ومفنى بعد يفتح ..
 - لازم خرجوا ..
 - مش معقول ياسيدى .. عزيز مسافر والسبت لا يمكن تخرج
 الساعة دى ..

وقفزت زوجتى من الفراش مرعوبة:

- صحيح .. لا يمكن نانى نخرج فى الساعة دى ..
 وهولت إلى الباب .. وأنا أجرى خلفها .. والخادمة تصرخ
 وراها .. ووقفنا ثلاثنا تنق على باب الشقة بأيدنا فى وقت واحد ..
 ومرت دقيقتان .. وسمنا صوتاً خافتاً يشبه الأتى .. واصفر وجه زوجتى
 وابيض حتى أصبح فى لون السبل الأبيض .. وأخذت تهز الباب فى
 عصف ..

وترامى الى أذناننا صوت حركة بطيئة .. ثم وقع خطوات تقتربه ..
 ثم تحرك المزلاج وانفتح الباب .. وكانت نانى واقفة .. أجبناها بقليلة
 واردة ونحمت عينيها غشون زرق .. وهى تنظر إلينا فى دوار النوم ..
 كأننا خيالات فى أحلامها

وكان جسمها الصغير يتطوح ..

وأخذنا زوجتى بين ذراعيها ودخلنا ..

كانت الضرب كلها نظيفة منظمة .. وكل قطعة من الأثاث فى
 مكانها .. وفى غرفة النوم كانت الأباجرة مضبوطة .. وعلى الكوموديتو إلى
 جوار الفراش .. لاحظت أربع زجاجات لأدوية منومة مختلفة .. وكتاب
 لبلزاك مفتوح على الصفحات الأخيرة ..

كان من الواضح أنها تأخرت فى النوم وتعاطت دواء منوماً لتسالج

الأرق .. فنامت والأباجرة مضبوطة .. إلى هذه الساعة من الصباح ..

وهذا كل ما حدث ..

وأفرح رعبنا ..

وجلسنا إلى جوارها أنفط أنفاسى .. وأنا أتمسر بالهرج .. لقد
 سرقت منها النوم الذى توسلت إليه بالأدوية ..

ونحبت زوجتى لقد كوباً من الشاي ..

وقت آنا إلى النافذة .. ألوذ بوحدى من إحساس ثقيل بالذنب ..



كنت أفكر فى الأربع زجاجات من الأدوية المنومة .. وأنا أقود عربى
 بسرعة فى عصر ذلك اليوم .. وفى المقعد الخلفى كانت تجلس زوجتى ..
 وأبنا ونانى .. وكنت أسع نانى تضحك وهى تداعب ابنى .. وأشاهد
 صورتها فى مرآة العربة .. وسمرها المرتب فى بساطة .. وعينها العميقتين
 جداً ..

وجلسنا فى كازينو على النيل .. وكان النيل فى الفيضان .. والمياه
 عالية كبطن الحامل ..

وكنت أتمسر بالسعادة وأنا أنظر إلى الملهج الحمراء وهى تجرى وتجرى
 كأنها دم فى العروق يتجدد كل لحظة ..

وكانت الشمس تميل إلى الغيب .. والألوان تتغير بسرعة .. وتأخذ
 معها وهج النهار .. وتنطس فى بحيرة رمادية ..

وكانت الباربات على الكوريش تنطس رويداً رويداً وتدوب فى
 ذلك الفصل الرمادى .. فلا يبق منها إلا مساحة طويلة بطول الشاطئ ..

مساحة قاتمة بلا معالم ..

وكنت أفنى من الحسد الذى يبعثه اللون الرمادى فى حواسى على

صراخ ابنى وهو يجذب أمينة من نوبها ويشاور بيده الصغيرة إلى المراجع في آخر الكازينو.

وأخذته أمينة .. ودعيت به إلى المراجع .. وهو ينط ويقفز .
وبقيت وحدى مع نانى .. وكنت أنظر في عينيها وهما يزدادان اتساعا مع الغروب كمبون القلط .. ويمعان في نفسى أكثر وأكثر ..

ذلك الإحساس الغامض بالعمق .. وكنت أفكر في زجاجات الأدوية المومة على الكوموديتو .. وسألتها فجأة :

- هل تتعاطين منوماً على النوم ؟

- أحياناً .. حيناً طويلاً في الأرق ..

- ولماذا يطول بك الأرق ؟

وسكنت ونظرت في وجهى مترددة وقلت مشجماً .

- ليس هناك في الدنيا شيء يستحق أن نتم به .. كل شيء ينتهى ..

الماضى يموت .. والحاضر يموت .. وأسوأ مستقبل مثل أحسن مستقبل يموت هو الآخر .. قيم القلق والأرق .. ولماذا نتم بأى شيء .

- انت تتكلم كرجل عمره مائة سنة .

وعادت تنظر في وجهى بركة وتردفا .

- ومع هذا فأنت نتم .. وتقلق .. من أجل أشياء كثيرة صغيرة

أحياناً .. أليس كذلك ؟

نعم .. أحياناً .. لأنكر ..

- اتري انه لا فائدة من الحكمة .

- ولكنى لا أحب أن تتعذى مثل ..

- أهو اهتمام آخر .. هل أنصحه أنا أيضاً .. وأقول لك أن الماضى

يفسوت .. والحاضر يفسوت .. وكل شيء يفسوت .. ولا داعى للاهتمام

والقلق بأى شيء أو بأى إنسان

وسكنت حيناً رأتى مستملاً حزناً .

كنت في الحقيقة محتاجاً إلى هذه النصيحة أنا الآخر .. وكنت

أواسى .. نفسى بلا جدوى .. وضحكت ..

ولمعت عيناها على نبرة اليأس في ضحكى ونظرت إلى ..

كانت تبادلنى نفس الإحساس المرير بالحيرة ..

- ماذا نريد بأنفسنا .

- نعم ماذا نريد بأنفسنا .

وأردفت في حرارة دون أن تفكر :

- أنا أريد أن أحيأ ..

- وحياتك التى تبيعينها .. ؟

- وحياتى !! .. أى حياة تقصد .

وسكنت في بأس .. ولمعت عيناها بغشاء وقيق من الدموع . ثم قالت

في صوب خافت :

- ربما اطلعتك على حياتى يوماً ما .. إلى أكتفى .. أحياناً أكتب من

قرط اليأس ومن قرط الوحدة .

وتأرجعت على شفتيها ابتسامة واهية ..

وكان يبدو عليها أنها تفكر وأنها مترددة .

وتلاقت نظراتنا .. وكأن شيئاً ما يشدنا إلى بعضى .. ولم تتكلم .

وقطع صراخ ابنى صمتنا .. وكان يجرى عموماً ويضط ويقفز ..

ومن ورائه أمينة .

وجلست أمينة .. وجلس ابنى إلى جوارها .. وارتفع صوت الملاعب

وفناجيب الشاى .. وترنوة الطفل .

ولكنى ظلتت متشدهة إلى نانى طول الوقت .

ولم يتغير الأمر كثيراً حيناً عدت إلى البيت ..

وحينما استغرقت في اعمال مكنتي لمدة أيام متوالية لم يتغير الامر كثيرا .

ظللت مشدودا طوال الوقت بهمال خفية .. بدنيا اخرى غير دنيا عمل اليومي ومصالح الطعام والشراب وفرة كل يوم .. هي دنياها .. وجوها ..

ظللت مائلة امامي حاضرة في ذهني طوال الوقت .

وحينما القيت بنقي في فراشي آخر الليل كنت اسأل نفسي اية رابطة من حديد تربطنا .. واتذكر علاقتي بفاطمة .. ان الامر مختلف تماما . ان وجود ناني الى جوارى يفتح لي عالما اليها امشي فيه .. امشي .. امشي .. ولا انصب .

اشعر بروعى تصادقها وتأوى اليها كما تأوى الى ظل شجرة . بدون هدف .. بدون غاية

واشعر بالاشوار العميقة خلف عينيها . تتكشف لي عن احاسامات اعانيها .. وآلام اعيشها واعرفها .. وكأنني ادخل بيتي .. وانجول في غرفتي .. واجلس تحت ضوء مصباحي الاخضر ..

اشعر برغبة في الانفضاء .. وانفضاء مكثوي اليها .. ونفض اسراري بين يديها .

وتخيل الى احيانا ان بعض كلماتي تصدر عني .. وكأن المساجز الذي يفصلنا سقط . وانفندحت فيه نفرة تتصل منها وتتخاطب وتخرج .

احساس غريب يخيم عليه الامان .. لا تستعجلي فيه رغبة .. وانما يتصل في تهر من الحنين دائم الجريان .

هل كنت اجسم لنفسي هذه المشاعر وانا نائم بالليل ؟

هل كنت احلم واتخيل ؟

لا ادري ..

ولكن حينما تيقظت في الصباح كنت احمل هذه المشاعر معي الى مكنتي .. واعدو بها الى البيت .. وانظر بها في صندوق الخطابات .. وانقب واقتح كل الخطابات بلهفة .. وابحث عن امضائها . وقد استول على شعور بأنها لابد مرسله الاوراق التي نكتبها عن حياتها . لأعيش معها .

كنت اريد ان اعيش حياتها معها .



كان الحواشي مرقى يتحدث في التليفون بلهجة انتصار .. وحينما وفقت في النافذة انتظره .. وأبته يترن من عربة كاديلاك أخضر موديل ويقتحم المكتب .. ثم يقف .. ويمشق قوامه وتلفت حوله نظرة ظافرة وجنت .

- ما رايك الان يا استاذ .. لقد رفضت ان تشارك معنا في مكتب الاستيراد .. وهذه اول خبطة لنا بعشرين الف جنيه - ما رايك تتسالى افتح دفاترك وقل لي ماذا كسبت من زراعة البصل في هذه اللة بصراحة ؟

ولم انكر اني لم اتلق مليا واحدا من البلد ..

ولم انكر ان المكتب الهندسي الذي اديره فاشل .

ولكني انكرت بشدة أني نادم .. وأني شاعر بأن نصف عمري قد ضاع .. فانا غير مقتنع بالعمل الذي يعمله انا ما زلت غير مقتنع به وليست لدى فكرة المساحة فيه والحكاية ليست حكاية فلوس .

- الحكاية ليست حكاية فلوس .. اشكرك . هل تسمح وتتنازل لي عن فلوسك .. وارضك واحيانك وتسريح من عتائها .. وتعيش سعيدا بتقائك .. ما هي الحكاية اذن يا صديق .

- الحكاية هي ان اعيش كما اشتهى .. اكسب على طريقي .. واهمل العمل الذى لا أقتنع به .

- وهل انت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد ؟

ولم اجب ..

وقال الخواجه مرقى :

- انا اكلمك كأخ كبير وصديق جيم للمرحوم والدك . انا لا تعجبني احوالك . ولو تركت نفسك فى هذا الطريق فسوف تصبح على الحديدة بعد سنوات .

وخطبى على كتفى قائلاً :

- اسمع ما زالت املك فرصة للاشتراك معنا . فكر .. انا لا اريد ان اخسر كسرك .. انا اتق بك وأحبك .. اسمع كلامى .. الارض لحس .. اخلص منها .. انت لم تخلق للزراعة ..

وخرج مرقى .

وحينما كان يدخل فى عربته الكاديلاك الفارهة .. وأنا انظر اليه من النافذة .. كانت كلماته مازالت تترع أذنى ..

هل انت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد .. هل انت مقتنع بالفلوس التى تخسرها كل يوم فى المكتب .

والحقيقة انى لم اكن مقتنعا بأى شيء من هذا .. انا لم اخلق لهذه الاشياء .. لم اخلق للزراعة ولا التجارة ..

والحقيقة انى لم اكن اعرف لآى شيء خلقت .

ولم اكن اعرف ماذا أريد بنفى .

لم اكن اعرف الا مقدار خمس دقائق من مشوارى الطويل الذى اسمه الحياة . هي وغوى الان فى مكتب هندسى فائس لا امت اليه بصلة .

واغلقت دفاترى واغلقت النافذة . ثم اغلقت الباب بعدم الاكرات ونزلت السلم .. وتوكت نفسى اضرب فى الطريق من شارع الى شارع فى مشية مترامية الى بيتى .

وتلفتنى الخيالات التى كانت تصاحبى منذ الصباح .. وتذكرت ما وتذكرت عينيها .. وتلهفت على حديثها .

وحينما وصلت البيت .. كان اول شيء نظرت اليه هو صندوق البريد .. وهناك كانت حزمة من الاوراق تنام فى الصندوق وعينا ابنى وعنوانى .. وقفز قلبى بين ضلوعى .. وانزعجتا فى لحظة وصعدت السلم وثميا ثم دخلت غرفتى واغلقت الباب خلقى .. وفتحت الاوراق كانت منها و كانت مكتوبة بالقلم الرصاص فى عجلة وانفعال :
وألقيت بنفسى فى مقعدى : وبدأت أقرأ



اول شخص اعنى عليه هو شقيقى الكبرى والوحيدة .. واول حادث اذكره هو حادث بين اخفى وزوجها .. كل منها يشتم الاخر ويلوح بيديه فى غضب .. ثم اخفى مضى عليها .. وأنا اصرخ بأعلى صوتى .. وسكان العمارة يهرولون لاسماعها .. وكان ذلك فى قنا مقر عمل زوج اخفى مأمور الضرائب الذى يكبرها بثمانية عشر عاماً .. وبعد ذلك وعيت على ابي الطبيب الكبير الذى يغشاه كل فرد فى البيت ويرتجف منه .. وأنا لا اجسر على الوقوف امام المرأة لا مشط ضفائرى خوفاً منه فأدخل الميم واغلق باب من الداخل واسرح شعوى وجو البيت الملى بالممنوعات .. ممنوع من الخروج .. ممنوع الوقوف فى البيت .. ممنوع الذهاب لمنزل خالى الا بصحبة أحد اخوانى .. ممنوع الذهاب الى السينما .. والسينما لم تكن ممنوعة فقط ولكنها كانت

حراما .. لان ابي شاهد مرة فيلما عرييا .. وكان رصاصة في القلب ..
فخرج ساخطا من نصف الفيلم وأخرجتنا معه لان البطلة التي كانت
مخطوبة احبت شخصا اخر غير حبيبها وصمحت لنفسها في يوم عقد
قرانها ان تغتلب بحبيبها في الشرفة تبرح له بحبها .. وهنا ثارت ثائرة
ابي .. وظل يلعن السيد والميادى التي تنادى بها .. واحتقر ثورته يان
حرمها علينا ..

ولكنه بالرغم من شدته وصرامته .. كان طيبا حنونيا يرضى الى
جوارنا اذا مرضنا .. ويكي ليكنا .. ويطمئن بيده .. ويقن لنا .. على
عكس امي الجانيبة القاسية وهي تخرج وتدخل على كيفها .. لا تشغلها
الا شئونها وزواجاتها وزياراتها وصديقاتها .. ولا يحبها ان كنا
نموت او نعيش ..

واذكر مرة .. بل عدة مرات .. دعواتها بان يأخذنا الله .. اثنين ..
اثنين .. اى والله .. كانت تصرخ بأعلى صوتها .. لو كان ربنا يرحم
ويأخذكم .. اهل يمين خيركم .. وتطلوا كل اثنين في خشية 11
لن انسى هذا اليوم .. ونحن ننظر الى بعضنا في صمت ونرمقها في
كراهية ..

وكانت امي هي المصخرة التي تتحطم عليها صلابة ابي وشدة ..
كان يقضى النهار في الصراخ والشجار معها .. فانا احواها الفرائس
بالليل ذابت ثورته وذاب شجاره وتحول الى حل ودع تهدده على
صدرها وتأمرة وتلهو به كيف شاءت ..

وكنا نعلم نحن الصغار .. ان امي تلهو بابي .. وتغنى على كيفها ..
كنا في اشتهر الاجازة الصيفية نساغر كلنا الى العزبة ويبقى والدي في
القاهرة للعمل في عيادته ..

وفي العزبة كانت امي تفرح على كيفها مع عمى المدة الوارث

الجميل الذي لا عمل له سوى ركوب الخيل واطلاق النار في الهواء
واصطحاب امي بالليل والنهار .. وضحكاتها ترن في الحقول .. وخلف
الابواب المغلقة بالليل ..

وكنا نرى ونسمع ونسكت .. ولا يخطر على بالنا ان ابي يعلم من
هذا الامر شيئا .. حتى فوجئنا بعد سنوات بخفاقة هتز لها ارجاء البيت
واي يصرخ بأنه سبق ان نهيا الى سلوكها المشين في العزبة فلم ترتدع
وقادت في علاقاتها الآثمة .. وانه لا يبعد امامه وسيلة الا ان الاطلاق ..
الطلاق في سكون حتى لا تضار سمعة العائلة ..

وكان معنى هذا الطلاق ان نقل امي كاهي في البيت .. ويزورنا هو
كالتعود في ايام اجازته على الا تقع عيناه عليها .. ويكنى بحرماتها من
البراث والمضاي .. حفظا لكرامته ..

وكان هذا يعني في نظر امي اشد عقاب يمكن ان يزل بها .. وانه
لاهون عندها ان تحرم من بيتها ومنا ومن سمعتها على ان تحرم من
ميراثها .. فلم يكن لها هم سوى جمع المال من اى طريق .. ولو انها
وجدت موقفا لتبيعنا فيها لباعنا بأجس الانان ..

وبالطبع انتهت حكاية الطلاق كما تنتهى خناقات كل يوم بجسده
الدخول الى غرفة النوم .. وصالى يان .. حبيب ياقنطة .. والى
كان .. كان ..

وتحول الاسد الى حل ودع بعد اول قيلة .. وانتهى كل شئ ..
وعادت المياه الى مجاريها ..

كان هذا هو حال ابي المسكين مع امي .. وحاله معنا ..
وكنا نتختر له ضيق صدره وعصبيته لأننا نعلم قلة حيلته ..
وأحيانا حينما كان يجمعنا حوله ليحكى لنا القصص .. كنت أرى
عينه تتدنى بالدموع .. وهو ينظر إلينا .. ويضمنا الى صدره .. وكان

في تلك اللحظات يغير موضوع الحديث .. ويبدأ في اعطائنا درسا في الوطنية .. ويقف لنا .

يا مصر يا ام الدنيا حبك في القلب سكن ..

وعن نفى معه .. وهو يدير وجهه الى الخلف ويسمع نغمه ..
كم احببت ابي .. كم احببته .

وبلغت السادسة عشرة في فبراير وبدأ ابي يلوح بوجوب امتناعي عن الذهاب الى المدرسة ويقاضى في البيت .. ولم تانع والدق على شرط أن يوافق ابي على زواجي ..

وتقدم لي في هذه السنة ضابط شاب يكررى بعشرة سنوات .. يتم الاب والام له ايراد خسارجي غير وظيفته مستقيم لا يشرب الخمر ولا يلعب القمار وجمته في عمله نظيفة .. فقبله ابي وجاء به لرؤيتي .. ورأيت شخصا عاديا ليس فيه شيء يلفت النظر .. أما هو فقد أعجب بي جدا

وامتدح جمال وجهي وعيني وشعرى الأسود الطويل ولى الصغير وأستأقني الموصوعة .. ويوم البسنى الدبلة لم يفته أن يريدي اعجاباه بانامل وبطريقة عنايتي بأظافري ..

وكتت سعيدة باطرائره لجالي .. فهذه أول مرة اسمع فيها الى جميلة جذابة.

وداعبتني الآمال ..

في المستقبل سوف أستطيع الذهاب الى السينما .. وسوف أستطيع الضحك والقتله بصوت عال على كئيل .. وتسريع شعري في المرأة ووضع الأحمر على شفتي .. والخروج الى التساوع .. والذهاب الى المصيف ونزول البحر .. والسفر .. والسهر وألف متعة .. ومتعة .. وجلس خطيبي يتحدث مع أخي .. وفهمت من حديثه أنه ينتظر

الترقية .. وأنه ينتظر ان يماوته والذي كطبيب كبير متصل بالسراي .. وأنه يملق زواجه على هذا الشرط .

وسقط في نظري .. وسقطت أنا أيضا في نظر نفسي ..

ان الجميلة المقاتلة كانت الترقية .. ولم تكن عيوني ..

وكأى رجل عادى يبحث عن صفقة .. كان خطيبي أيضا يبحث عن صفقة .. ويريد القرب من السلطان عن طريق الزواج .. لم يكن يريد التقرب مني ..

وغضبني كطفلة جرحرت في أحلامها ولويت بوزي .. وكرهته .. وكرهت الزواج ..

وحدث في ذلك الأسبوع ان جاءت اخي من البلد غضبانية من زوجها وأصررت على عدم العودة .. فهي لم تعد تستطيع الاحتمال أكثر من هذا .. مع زوج لا تحبه . ولا تطيقه .. زوج حاد المزاج ضيق الصدر في سن أيتها ..

وقامت التريامة في البيت .. بكاء وصراخ وتشنجات من أخفى .. وصراخ أند وتهديدات من والدي .. واجتماعات مع خالي تمقد ونفسي . وبعد خمسة عشر يوم واقفوا على الطلاق على أنه درس فقط يطره لزوجها لكي يتأهب .. وفعلنا طلقت واشترط زوجها أن يأخذ الأولاد وأن يستكفي احترافا يغطي بالتنازل عن المؤثر والثغرة وبأنها ليست حاملا وكتبت له ما اراد والفته في وجهه ..

وانتهت المشكلة ولكنها ما كادت تنتهي حتى انفجرت قبيلة غيرت نظرتنا للأمر كله .. فقد تقدم لأخفى بعد طلاقها مباشرة مقابل صديق لزوجها ومن نفس البلد .. تساب جميل من سنسنا .. كان يتردد على البيت بحكم صداقته بزوجها ..

وكانت فضيحة .. لم يسع والدي امامها الا أن وافق على الزواج

ليطلى على الخبر ماجور..

ونار خطيى وبدأ يلح بكلام جارح.. ونرت في وجهه وطسائيه
بنسخ الخطية ولكنه رفض.. لا لأنه يحبني.. ولكن لأن نتيجة
الترقيات لم تكن قد ظهرت بعد.
وألححت على نسخ الخطوبة ففسقها وشعرت براحة عميقة ليست
بعدها راحة.

وأذكر في تلك الليلة.. وأخي ثاقبة بجوارى.. أنها سألتني في حزن
وهي تبخل في حضني عن رأيي في زواجها وطلاقها وكلام الناس..
فأجبت وأنا أكذب.. أنت ممنورة.. لقد تعذبت بما فيه الكفاية مع
رجل لا تحبينه.. ولولا أن الله يعلم بأنك مطلومة.. لما أرسل لك هذا
الرجل لإتقاذك.. والزواج بك..

فتنهت أختي وقالت:

- أه.. كم تعذبت.. ما أرحم الله.. لقد عوضني خيرا بعد كل
هذه السنين التي صيرتها.. فأني أعيد زوجي وأضمن من فرط سعادتي
أني أحلم.. والى سأفني على الحقيقة المرة.. اصبر ان قلبي لن يحتل
هذه السعادة..

أبعد هذا الكلام كنت استطيع البوح لها بما أنا فيه.. ولكني كنت في
الحقيقة أتأم.. وكنت خجلى.. وكأني أنا التي أحلم فضيحتها.

وكنت أريد أن أبكي.. وأتكلّم.. وأنسكو أحزاني.. ولكن لمن
أنسكو أحزاني.. لأني؟.. وهي عدوّتي.. وعارها هي الأخرى على

رأسي.. لأني المسكين ولديه من عذابه ما يكفي ويكفي العالم؟

لم يكن هناك مفر..

كان لا بد أن أنزل وحدي.. وأحمل أنا هذه الصائلة وحدي..
وكانت النتيجة أفي مرضت.. وضعفت.. ونقص وزني في شهور إلى

أربعين كيلو جرام.. وأصبحت عيناى من فرط هزال وجهي وأسمتي
جدا.. وعقبتين.

وكان والدى متفيا في تلك اللحظة في مهمة جليلة بالمنيا.. وأمي
سارحة على كيفها تط كل يوم إلى العزبة ثم تعود سكرانة تنسى في
غرفات البيت بصوت أجش مبتذل..

وأنا نائمة في فراشي.. حرارتي مرتفعة.. ورأسي تكاد تنفجر من
الحس.. وقلبي يطحنه احساس دليل يأس.

ويطلق خطاب من أبي في ذلك الوقت يصف لي مدى ذعره من حلم
رأه.. وهو أفي مريضة طريحة الفراش وبحولي أربعة أطباء يفحصوني..
ثم يرفصون رؤوسهم إلى أفي ويقولون في نفس واحد.. فيفش فائدة
فيصرخ أفي مذعورا.. ويصحو من النوم ليجد نفسه جالسا في فراشه
والنموج في عينيه.

ولم يصدق أنه كان يعلم.. فقام لغوره ليكتب إلى يسألني عن صحتي
ويستحلفني أن أرد فوراً وبخط يدي..

وقملا كتبت له في الحال.. وكنت متأثرة جدا فظلمت أبكي طول
النهار وطول الليل ولم يقض لي جفن وأنا بين احساس عيف بالمسكن
واحساس عيف بالسعادة.. بالسعادة لأن أفي يحس في ويشعر إلى
هذه الدرجة.

وفي الصباح فتحت عيني على صوت أبي وقد جاء في أول قطار..
وصحبت لجثاته وهو يصعد الدرج وينادي بصوت عالي وبهلهة.. ناتي..
ناتي..

وجريت وفتحت الباب.. فخلقتني في حضنه وظل يقبلني ويكي..
وأنا أبكي.. وأضع رأسي الصغير على صدره.. فيهدهني كفرخ
الحمام.

يا أي .. يا حبيب .. يا ملاكي .. يا الهى الرحيم ..
عرفت في تلك اللحظة لماذا لا يطلق أبى أمى على ما يحلمه من أنها
لماذا تشل يده كلها ونفها ليسم يته .. لماذا يضعف ويفقد المقدرة
ويصبح كالطفل السليب الأرادة .. لأنه يحسب أولاده وبينه .. لأنه
يجبى ..

وعرفت له ضعفه .. بل لقد أحببت ضعفه .. وعنقت ضعفه .
ألسنت أنا ضعيفة ؟ أنا ..

وبدأت الأقدار تسج لنا أحرانا جديدة ..

أنهيت الحق من زوجها الجديد بنتا .. وبعد ستة حملت مرة أخرى ثم
أجهضت .. وبعد الأجهاض بشهور ظهرت عليها علامات سرطان
بالثدى رغم أنها كانت في أوج شبابها ولم تصد الثلاثين ..

وأجريت لها عملية استئصال للثدى .. وقال الأطباء ان العملية لن
تنفع .. ولها جدات متأخرة .. وأن السرطان سيهاومها في خلال ستة .

ومضت شهور من الانتظار للفرع .. انتظار الموت ..

وأنا كل يوم أنظر الى وجهها وهي تضحك فيحيل لي أنها جثة
تضحك .. وأدخل في غرفتي وأبكى بصرقة .. فلم يكن في إمكاننا أن
نقول لها الحقيقة .

لقد تمنيت أن يصيبني الله بدائها ويأخذني لا سترج .. فلم يكن
لدى شئ أتعلق به .. أما هي فكان لها حب تمشي من أجله .. ورجل
تحميه .. وأبنة جميلة تشفقها .

كانت الدنيا بين يديها .. وكنت وحدى ..

ولكن الموت لا يختار ضحاياه ..

واقتربت نهايتها .

وكانت آلام العظام تفرى جسدها .. وكانت تصرخ وتتمسك بيدي

هانئة في ذعر ..

لا أريد أن أموت .. لا أريد أن أموت .. ألى أفضل ان تطعنني
الآلام ولا أموت .

لا أريد أن أترك زوجي .. حبيبي .. سعادتي .. لا أطيق أن تأخذ
امرأة أخرى مني .

وتمسك بزوجها وتصرخ ..

أحلف لي أنك لن تزوج بعدى .. احلف أنك ستعيش تذكري ..
لا أطيق أن تلمس يديك الخنوبين امرأة أخرى .. لا أطيق ان تلمس

شفتيك شفة أخرى غير شفتي .. ان هذا يقتلني ألف مرة أكثر من
الموت .

وزوجها يبكي ويقلل يديها وقمها ويؤكد لها أنه لن يزوج ..

أبدا .. أبدا .. مدى الحياة

ثم يخرج الى الصلاة وينهار باكيا .. ويقول ..

لم أعد أطيق عذابا .. لن ألامها تقتلني .. أبقى أن تموت
لستريح .. ولكن كيف تموت .. ان موتها يعني انتهاء حياتي أنا أيضا ..

يارب .. وكانت في أيامها الأخيرة تهذى باستمرار .. وكانت في حاجة
الى سهر وفريش مستمر ..

وطلب زوجها مني ومن أمى أن نبق معها في البيت .. فتبادل السهر
عليها .. ولكن أمى اعتذرت بكل بلاهة بحجة أنها لا تستطيع ان تترك

البيت والأولاد .. ولأنها ليست في السن التي تسمح لها بالسهر الى
جوار مريضة ..

ومن هي هذه المريضة .. انها بنتا 11

وكان معنى هذا أن أسهر الى جوارها وحدى ..

وأن اسمع كلماتها .. كلمة .. كلمة .. وأهاتها .. آهه .. آهه .. وأن

ألقى لهاثا وشهقاتها على صدرى .. وإن أموت إلى جوارها بالحياة ..
وتلطف الله بيا فقبض روحها إلى جواره .. وأصبحت أنا بانتيار
عصى .. فأخذنى خال إلى الإسكندرية .
وسافرت وأنا كالمنهولة ..

وبذل خالى وزوجته وألمائلة كل ما يستطيعون من جهد ليفرجوني
من حزن وصمقي وانطواى .. دون جدوى .. ولم يكن أحد منهم يعلم
مدى ما أهانىه ..

كنت كلما اغمضت عيني رأيت أختى ميتة وزوجها يحفظ مجنتها في
المزلق ويأبى أن يدفنها لأنها لا تستطيع قرائه . وتثبت به وهي ميتة .



ومرت سنة وذهبت لرأس البر للسطاف .
وجاء زوج أختى في زيارة لمدة ثلاثة أيام ..
ولا حظت خلالها أنه بدأ يغير نظرتي له فبعد أن كان يعاملني كشقيقة
صغرى بدأ ينظر إلى كاتبة ..
ولم أفهم ما يقصده ..

وحينا عدنا إلى القاهرة وعلمت السائلة بزيارته .. أخلوا بباركون
لي .. على أنه ١٦ وصحت صديقات أمي يباركن لها في التليفزيون ..
على .. أبه ..

ولمى تقول لي أنه شيء طبيعي .. وأنه أحسن زوج لي .. أنا .. ٢١١
أزوج زوج أختي التي عاشت طول عمرها تميده واستعملت مجانيها
وعذابها إلا يعطى نفسه لامرأة أخرى بعدها .. مستحيل .. مستحيل ..
مستحيل ..

إلى أموت بلا زواج ولا أتزوجه . مستحيل ..

واجتمعت العائلة حولي .. ليقولوا كلهم في نفس واحد ..
مستحيل ليه ..

أنت أحق به من الغريبة .. واللى تعرفه أحسن من اللي ما تصرفوش
وحساتقوى البيت لمن .. البيت الحلو الصغير .. بنت أختك اللي
حتمرط في أيد اللي تسوى واللى ما تسواش ..

وهو ماله .. أخلاطه ممتازة .. وفلوبسه بالالوف .. واسنائه ..
وعقله .. وحنانه .. وادي اني شفق ازاي كان يعامل أختك ..
ومرعت .. مستحيل .. مستحيل .. انتم مجانيين .

ولكنكم إحاطوا بي في حلفة .. وأخذوا يضيقون الخناق حول عنق
وملاحهم القتل .. والنطق .. وكلامهم مقول واسوأ ما فيه انه
مقول ..

انه شخص ممتاز فعلا .. وأنا أولى برعاية بنت أخت من الغريبة .
ولكني لا أشعر نحو بشر ..

ومن ادراككم انه لم يكن يعامل أختي هذه المعاملة الا لأنه مجيبها ..
وكيف أسلب أختي راحتها وهي في قبرها وأخذ زوجها ..
مستحيل .. مستحيل ..

مستحيل ليه .. إنها حينئذ تحس في قبرها ان بنتها .. وديتها ذهبت
إلى يد أمة .. وأن أختها هي التي سوف ترعاها فانها سوف تفرح .
أنت مغفلة ..

مغفلة .. ربما ..
ان أسوأ ما في كلامهم انه مقول ..
يارب ساعدني ..

أبي .. أبي حبيب ..
أبي يقول لي بسنداجة . تزوجيه .. انك أولى به من الغريب .. انه

انسان طيب .. وبنته صوف تكون بئتك .

أخي يقول لي .. ترى حتى تعرفي شعورك .. انها ستكون آخر فرصة لك ..

أسي سافرت الى الاسكندرية لتعود ومها البنت .. بنت أخي .
أه من البنت ..

انها حيناً رأيته . القت بنفسها على صدى واحتضنتي في حب وغمرتي بالقبلات في كل مكان من وجهي وعنق .. وطلبت ان تمام معي .

وحيناً أخذتها في حضني لم يفسخ في جفن طول الليل . كان كلامها يفتت كبدي .. ويقلب تفكيري رأساً على عقب . وجاء هو . بعد أسبوع وفاقني في موضوع زواجه .. وصارحته بكل ما يدور في رأسي .. قلت له أتي لست كشقيتي .. بل أنا على عكسها في كل شيء .. في الطباع والاخلاق والصورة واني لن استطيع ملء الفراغ الذي تركته . وفي آخر أهم من كل هذا .. أتي لأحبك كما كانت تحبك هي .. صحيح احترمتك وأعزك لأنك شخص مثالي وأحبك كأخ .. ولكن لا أتمتع بحوك بشعور الزوجة لزوجها .. فقال لي :

- أفي اكتفي الآن بهذا الحب .. وسوف اترك لك من ان يسلط بحبي
كما تحب الزوجة زوجها .. أما عن طبعك واخلاقك .. فاعتقد اني افهمك اكثر من أي شخص آخر .. وسأعرف كيف أعاملك .. وأعوضك كل ما فاتك .. أما عن الصورة فصحيح انت مختلفين عنها كثيراً .. وليس معنى هذا انك وحشة .. ولكن لك جمالك الخاص بك أما عن الفراغ الذي تركته اختك فانا لم أقدم إلا بعد نفق في نفسي وفي شعوري ..

وقلب له .

- أنا متأكدة انك لم تطلب الزواج مني الا من أجل بئتك . والحالة بها كانت فهي أرحم من امرأة غريبة ..
فقال في نبرة تأكيد :

- انت غشظة في تفكيرك .. فأنا أولاً وقبل كل شيء أطلبك لاني معجب بك .. وانت تعلمين اني أعيش مع اختي الأرملة .. وانها تخدمني وتخدم بنتي .. ولا يذهبني الى الزواج بك حاجتي او حاجة بنتي الى الرعاية ولذا يدفعني حتى لك .

وهنا دخلت علينا البنت وقالت في نبرتها الحلوة :

- مالكم قاعدين تتوشوشون زى المتجوزين كده ..

بنقولوا ايه .. بابا ؟ .. تحب بطر زى ما يحبها .. أنا محبها قوى ما أعرض ليه ..

- وأنا كان محبها يا حبيبتي .

- خلاص ما دام بابا ييحبك وأنا معنديش ماما .. ليه متكوتيش ماما .. انتي معنديش ولاد .. وأنا معنديش ماما .. يبقى أنا بئتك واني ماما ..

فاضروقت حيناً بالدموع .. وتلففتها في حضني ..

وقال هو في صوت حزين :

- ألا يكتفيك اسعاد ثلاثة أشخاص احباء وأعزهم المتوفاة لكى تنسرى بسعادة كبيرة .

فأعلته موافق دون وعي مني .. فقط اشتعلت عليه تغير السكن اذ لا يمكن العيش في نفس الشقة التي عاشت اختي وماتت فيها .. وهكذا تزوجت الاستاذ عزيز .. وزوجي .. وبدأت مأساتي الكبرى .

أسلها أعز ممتلكاتها .. وأطلب الثمة في فراشها الذى ماتت فيه ..
وتام هو ..

وظللت أنا صاحبة انقلب على فراش من الشوك واحلق في الظلام
وتسبح الميتة امامي .. وصوتها يجلبجلب في اذني .. وهي متشبثة بذراع
زوجها تصرخ .

« أحلف لي انك لن تتزوج بىدى يا عزيز . احلف انك ستعيش
تذكرني .. لن أطلق أن تلمس يديك الخنوتتين امرأة اخرى .. ولا أن
تلمس شفتاك شفتين غير شفتي .. إن هذا يقتل ألف مرة أكثر من
الموت .

وأنا أصرخ وأبكي الى جوارها واولول .. يا حبيبتي يا اخوتي ..
سوف تعيشين لزوجك ولتلك .. لن تموت أبدا سوف أموت أنا .
وانتبه لأجدني على الفراش .. انا بلمس ودى والى جوارى زوجي
عزيز نفسه .. وبيدى ما زال يبلله العار من آثاره .

ويصحو زوجي لينهب الى الشغل ثم يعود قائلاً انه تعب من البحث
عن شقة اخرى بإيجار قديم ويغلو رجل .. ويقترح على تغيير نظام
الشقة وفتح الحائط بين حجرة النوم وحجرة الأولاد لتغيير المنظر
وتحويل الغرفتين الى غرفة جميلة واسعة .. الى أن نبنى قبالا ..

« وهل ستبقى قبالا ؟

فيقول .. نعم .. لقد اشترت الأرض قبالا .. وبدأت أتفق على
رسمها وبنائها .. ولكن بالطبع لن أستطيع دفع أقساط بنائها إذا انتقلت
الى شقة بإيجار جديد لأني لن أستطيع الدفع في الشقة الجديدة
والقيلالي وقت واحد .

« وهل ستنتهي من بناء القبالا قريباً ..

« في ظرف شهور قليلة يا حبيبتي . ان الحكاية لن تحتاج أكثر من

- ٦ -

قلت لميزي اني لا أستطيع الدخول في شقة اخي المرحومة وعلى
عفشها .. فوجدت انه سوف ينتقل الى شقة اخرى .. وسوف يشتري
في عفشها جديدا .. ويعطى الممش القديم لأخي .. ويطلب مني الاسراع
في اعداد ملابس الجديدة .. وبدأنا نتشاور في الامتاث الذي سنجده .
وبعد عقد القران خرجنا نتمنى بالليل .. وعند عودتنا فوجئت به
يشدني الى غرفة النوم ويغلقها بالمفتاح .. ويطلب مني حقه الشرعي .
وفوجئت بهذا التصرف من جانبه .. وخصوصا بعد أن شرحت له
حالتي وحاجتي لتغيير الشقة والمجو القديم لتسريح أعصابي .
ولم أكن قد نجايت بعد هذه الرغبة ..

كنت ما زلت انظر اليه كأخ احترمه وأعزه ..

وكانت مفاجأة اوتبكت لما تماما .

وتم اتصالنا في نفس غرفة النوم التي كانت تنام فيها الميتة .. وعلى
فراشها

ولم أشعر بلذته ..

لا شيء سوى احساس بالاهتزاز منه وهو يخلع ثيابه .. واهتزاز من
نفسى .. وأنا أنام وأمتثل لكل ما يطلبه .. وقضول ودهشة .. واحساس
بالليل .. وبالقرف .. ثم احساس مرير بالذنب في حق اخوتي وأنا

شهور قليلة تصير فيها على عيشتنا هنا حتى ينتهي البناء...
وهكذا صيرنا..

وبقينا في تلك الغرفة الملعونة.. لم يتجدد شيء سوى عذابى الذى بدأ
يوم بعد يوم ليسيع عذابا رهيبا..
يصبح المسح فاقوم لأتساعد البت على الفعاب الى المدرسة..
وأعد لزوجى فطوره..

وينجب الى عمله وأبدأ أنا في الإشراف على البيت.. ويملكى
الشعور بأنى لست في بيتي.. وإنما أنا زائرة غريبة.. لهصة.. كل
حجرة تذكرنى بأختي.. كل مقعد.. كل قطعة أثاث..
إنه لم يتزوجنى أنا.. إنه لم يتزوجنى أنا.. إنه تزوجنى لأنى من
رائحة أختى التى يحبها.. تزوجنى ليمتلئ بي حتى يبق في نفس البيت..
وفي نفس الغرفة.. ونفس الفراش الذى يحبه..

ما أنا إلا شبح.. أما الحقيقة التى قلّوه وغلا قلبه وغلا البيت وغلاقى
أنا أيضا فهى جسم الميتة وأنفاسها..

أنا لهصة سرقت روجها منها.. بل هى الهصة التى سرقت نفسى
منى.. سرقت حقيقتى.. ووضعت في مكانها صورتها ورائحتها..
وفي كل يوم أبعد عنه أكثر.. وأبتعد عن نفسى أكثر وأكثر..
ويتسع المرح في داخلى.. ويتفصل سلوكى الظاهرى الذى أتكلفه
بحكم الواجب.. عن شعورى الداخلى الذى يضطرم داخلى بالنفور..
وهو لا يشعر بالعذاب الذى أعانيه.. وإنما ينور ليرودى.. ثم يكف
عن الاهتمام بى وبرغباتى.. ويأخذ في معاصلى كئى اشتراه بالمال..
يأخذ منه حقه الشرعى منى يشاء بالطريقة التى تعجبه.. لا يعبا
باشترائى..

ويتحول في نظرى الى حيوان..

وأبحث فيه عن الرجل الممتاز.. والانسان اللطيف الذى تعودت ان
احترمه فلا أجده..

إن المعاملة السرية والسطف الرقيق المتبادل في لحظة الفراش..
وحرص كل واحد على شعور الآخر.. وتجارب التقوس والأرواح..
هو وحده الذى يخلق الاحترام الحقيق والمحبة بين زوجين.. أما المظهر
اللطيف في التسارع وفي القرام وعلى البلاج فإنه لا يكتفى ليحصل من
الرجل زوجا..

إن الرجال يخفون كثيرا حينما يظلمون ملابسهم الرسمية..
ولحين تكذب على أنفسهم حينما يقول انا سوف تحب أزواجنا بمرور
الوقت..

لقد فهمت هذا بعد فوات الأوان..
لم يكن زوجى ذلك الرجل التيبيل الجنتلمان الذى تعودت ان احترمه
وحينا خلع ملابسه.. كان مجرد حيوان..
ولم يحدث شيء بمرور الوقت.. لا حب.. ولا حتى تصود.. وإنما
ازدادت كراهيتى.. وازداد تعورى..

وكت أشعر بالضيق كلما أقرب منى ليأخذ ما يسميه حقه الشرعى
وكت أحيانا أضغط على نفسى لأرضيه.. وأحيانا أعلنه بألى غير
راغبة وكان حينئذ ينور.. ويقول انه بشر ويدنه له عليه حاجات..
فإن أين يقضى هذه الحاجات.. فانور أنا أيضا وأصرخ بألى بشر..
ويدنى له على حتى أنا الأخرى.. ولا أستطيع أن أرغمه على طعام
لا يحبه..

وكان يحدث دائما إذا ضغطت على نفسى وامتلأت لطلبه.. أن انور
بعد هذا لأخفه الأسياىب.. وأبكى.. وأصرخ..

وإذا حدث العكس وضغط هو على نفسه.. وامتنع من أجلى.. فإنه

كان يثور وينفجر بعدها لأتفه سبب .

وكنت حينئذ وحيث تبلغ ثورته أشدها . . أضمر براحة شريفة في داخل . . لعلها أحسق المية هي التي كانت تبتهج في داخل بهذا بهذابه . . ولكي كنت أضمر شعورا آخر واعيا بالطف عليه . . والحزن من أجله . وهكذا كنت أراوح بين احساسات متناقضة .

وبدأ يلجأ الى أدوية وأساليب طبية لطيف في فترة اتصاله بي . وكنت في تلك الحالات أضمر بلذة . . ولكن اللذة كان يحقها فيه . وصداق وآلام نفسية حادة . . وشعور بالفقر والافتقار من جسمي لأنه يتلذذ وحده كالحيو ان دون أن تتلذذ وحي وتنعيم نفسي . . ودون أن أشعر برضى القلب .

وكنت أحتقر جسمي . . وأعاقبه وأتار منه . . وأنظر اليه باعتراف كأنه جسد عاهرة باعت في سبيل قوتها ومصروف يدها . كانت اللذة تنتهي دائما بتكد لي ولزوجي . . وأدرك انه لا فائدة . . فأسلم نفسه لياس مرير . . وبدأ يمانقني كأني وسيلة يؤدي بها وطائفة بدون شعور . . بدون تعهد . . بدون مقدمات .

وتحولت ساعات الليل الى ساعات عذاب أليم .

وفي بعض الأحيان كنت أضمر بانتفاض في صدى بجسده صياح أذان العصر . . ودخول الليل . . من غوى . . ومن احتال عليه شيئا . . وفي أحيان أخرى كنت أنهار وأبكي . . وأظلم خدي . . وأشد شعري . وكثرت رؤيى لأخفى في الأحلام .

وكنت أراها في مرة تسبل ثياب زوجي . . ومرة تغيط له بجواربه أو تطعم بنتها وتعد لها الثناي واللبن . . وتلبسها مريفة للدرسة . كانت تروح وتعيى حولي . . وفي عقل . . وفي خيالي . . وتعيش حياتها

البيبة العادية . . التي هي حياتي . . وأنا أنظر اليها . . والى نفسي كأني غريبة تماما .

وبدأت أغرق آلامي في القراءة . . كنت أقرأ لزفانج . وأطالع مارسيل بروست . . وبض كتب بزاله قراتها مرتين وثلاثة . . وأحيانا كنت أقرأ الجرائد القديمة . . وأحيانا كنت أكتب . .

وأحيانا كنت أتلهي بالمزف على البيانو . . وكنت أحب المقطوعات الحزينة الياسة مثل .

ولكي كنت أحس في لحظات أن كل هذا كلام فارغ . . وكنت أمزق الأوراق التي كتبتها . . وأمزق الكتب . . وأمزق شعري . . وأبكي في حرقه وصمت .

كل هذا كلام فارغ . .

إن أنوثة المرأة هي كل وجودها . . وحيث تنقد المرأة جسمها وروحها فلا تقي يوحنها . . لا تقي . . لا تقي أبدا .

وفي تلك الأحيان كنت أخضع الأعراس المنومة . . لأتمام . . وأقتل سوس القلق واليأس الذي يأكلني .

كنت أتشد الحلاص من نفسي بأني من . .



وأخيرا وصلت غرفة النوم الجديدة . . وجاءت معها أُمي . . وغيّرت نظام البيت . . وبعد يومين تناسجنا وسافرت فضباطة لأتيا تريد أخذ بعض مفارش أخف بحجة أنها أصبحت زائدة عن حاجتي . . ورفضت بشدة . . وقد أحسست مدى الفارق بيننا . . هي كل تفكيرها محصور في أخذ مقرشين أو ثلاثة . . وأنا أعيش أبكي وأصرخ وأحرم على نفسي حياة وسعادة هي ملكي وحتى يهود أن أخفى اشتيتها يوما ما . .

وأدركت رحمة الله وظهرت على بواهر الحمل .. واستمرت من اتصالى بزوجه بضعة شهور أنجبت بعدها طفلا جميلا .. شعرت بالفرحة لأول مرة .. حينما نظرت في وجهه .

وسافرنا الى بور سعيد .. وفتح زوجى مكتباً للمقاولات . وكانت حياتنا تبدو من الظاهر رتيبة هادئة . وكأننا انأمت جراحها ولكنه الشام من السطح فقط .. لأنها كانت تزداد عمقا يوما بعد يوم .. ومرت شهور .. وانتقلنا الى شقة جديدة .. ولاحظت أن حال زوجى ساءت .. وأن أعضائه أصبحت لا تحتمل أى شئ .. وأنه أصبح يتور في وجهى بلا سبب وبظل يصرخ ويشتم ثم يهمل في وجهى .. وتلمع عيناه ببريق غليظ فيه مزيج من الكراهية والبأس والجنون .. وكان يخيل لى ساعتها أنه سيقع فائد النطق ..

وكان السبب هو سوء حالته المالية .. وتوقف أعمال المكتب بسبب الحالة الاقتصادية .

وكت أحاول يتسنى السبيل أن أطيب خاطره بدون نتيجة .. إذا هونت عليه المشكلة أنهى يأتى لا أقدر الموقف .. وأنى أنانية لا يحسنى الا انفسى .. وإذا حاولت التفكير معه .. نهزنى وقال : أنى طفلة فى تفكيرى .. وأنى لا أفهم شيئا .

وجامت الست الوالدة .. لا لزورى ولكن لتقبض حوالى الخصمائه جنيه تصويضا عن ثلاثة كباين غمرتها المياه بسبب افعال البلدية .. والحقيقة أن هذه الكباين كانت قد انسرقت من نقود والذى دون ان يعلم .

وقلت لها إلى معنورة .. وفى حاجة لتقريش .. وأن حالة البيت تعبانة .. وأن زوجى عصي باستمرار بسبب توقف الأعمال فى مكتبه .. فوضعت يدها فى محفظتها .. وأعطيتى ثلاثة جنيهات .. ولم أعرف

ماذا أقول .. وبإذا أستمعها .. وألقيت فى وجهها النقد .

وقصدت أصرخ وأبكي .. وزوجى يصرخ فى وجهى .. دى مش عيشة .. إيه القرف ده .. أنا ذنبى أيه أستحمل التكد المستمر ده .. أتنى أتحافق مع أمك .. تقوم هى تسافر مبسوطه .. وأنا إلى أشرب المر هنا ..

وأبكي فيزداد صراخه .

وبدأت أفكر جدنيا فى وضع حد لهذا العذاب .

كان الطلاق غير جيد .. فقد فات الأوان وتحولت إلى عجز صغره كالحية فى سن الثلاثين .. امرأة ذالعة تائهة لا تصلح لشيء .

ولم تكن لى حياة أخرى أحيائها .. أو بيت آخر الجأ إليه .. أنى تكرهنى وأنا أكرهها .. وسوف تطردنى من بيتها إذا لجأت إليها .

وإذا طلقى زوجى فلن يكون أمامى حل سوى الانتحار .

كانت حياتى كلها يأس فى يأس المتحرج الوحيد فيها هو الخضوع والقبول والاستسلام ..

وبدأت أقتل فى نفسى كل احساس .. وأعيش جسدا بلا روح .. انصرف فى فراغ مفرغ .. وملأ قاتل .. وأنام فأثبت فى فرائى بلا حركة لا أنأ بالنائمة أو بالصاحبة .. وإذا راقدة فى خول ششيع .. أحوم من رقادى لأرقد من جديد ..

وبدأ يشتكى فلأره .. ويسبى بألفاظ بذينة فلا أجابوه . ويتور فى وجهى ولا أتكلم .

وإذا به يصرخ فجأة :

إننى سأكتبك كده ليه .. عاوزه تقرسىنى .. حد مصلطك عليه ..

عاوزانى أعين .. عاوزانى أطلقك وأخلص .. طيب أنت طالق ..

ووقف يطلب والدى فى التليعين ويلفه أنى طالق .

انى أخسر كل شئ .. حتى نفسى .. وليس لى الا نفس واحدة
أعيشها ..
وانتهت المذكرات .



وعدت أسلك حزمة الأوراق .. كأنها حزمة من الأعصاب لا من
الأوراق ..
هذه هى نائى .. وهذه هى القصة التى كنت أبحث عنها خلف
عينها ..

وضعتها عجانى فى رقة كأنى أوسد جرحها .. وعادت كل كلمة فيها ترن
فى أذنى .. كل شخص يطاردنى .. ويتمثل لخيالى .. وكأنى أعرفه من
رمن بعيد .. وكأنى عشت معه ..

كلهم تجمعوا حولى .. الأب المنون الذى يتحلب فى صمت .. والأم
لقاسية .. والأخت التى ماتت ويشت .. بنت فى دى أنا أيضا ..
والزوج ونائى .

لم يعودوا يتحركون وحدهم .. أصبحت التحرك معهم .. وأشتركهم
مصيرهم .

وخلف الظروف التى تباعد بيننا وجدت الخيط الذى يربطنا نحن
الاثنتين أنا وهى .

كل منا ضاعت حياته .. وهو يبحث عنها .

ضاعت نفسه .. وهو لا يجدها .

كل كلمة قرأتها وثقت هذا الحبل الخفى .. وعقدت بيننا ذلك القرائن
الحرام الذى لا مفر منه .

ونام ليلتها فى حجرة أخرى .. وبث أنا أفكر فى مصيرى ..
لا شئ أصبح يجدى .. خضوعى أصبح يثيره .. وهياجى يثيره ..
وها أنا مطلقة .. بلا أمل .. بلا بيت .. بلا صدر حنون الجأ إليه .
واندفعت الى موس حلاقة وجديته أسامى .. وقطعت شريان ذراعى
وأغمى على .. وكان آخر ما سمعته صوت الحاصدة وهى تصرخ .. دم .. دم .. دم ..

وحينا أفقت كان زوجى راكبا الى جوارى يعيل يدى .. وقدمى ..
ويكى ويوصل .. ويقول أنه سيفعل المستحيل لأسعادى .. وأنه لن
يتركنى أبداً معها حدث .



وأنفذونى من الموت لأموت بطريقة أخرى .. يبطه .. فى البيت
الراسع .. والمجرات التى لا أعرفها .. والرجل الغريب الذى يضمنى
كل ليلة على أنه زوجى .

والملل .. والفراغ .. والحياة التى بلا معنى .

وكل يوم مثل الآخر ..

وأنا أقرأ .. وأكتب .. ثم أشعر انه لا فائدة من أى شئ .. فأخذ
الحبوب النومة لأنام .

ولا أحد يشعر بى ..

آه يا رب ..

ماذا فعلت لأتعب ..

وما هو الأمل الذى أنحسر من أجله كل هذا الذباب .

أن الناس يضمون بأنفسهم من أجل شئ .. وأنا .. من أجل شئ
شئ أضحي ؟

انها لا تعرفى .. ولكنها مع هذا قد سلمتى مفاتيح عالمها الخاص
لأدخلى فيه .
ولمهما عرفتى بما فيه الكفاية حيناً نظرت فى عيني فوجدت نفس
العلم الذى تسكنه .. وشعرت بأواصر الضياع التى تربطنا حين أن
نتكلم .
نائى ..

اشعر بها قريبة منى .. اشعر بها حولى .. فى داخلى .. الى
جوارى .. احبها .. بنس البأس الذى تكره به زوجها .
نائى .
ولم أستطع ان اصبر ..
ولم اعرف ماذا افعل بالضبط .. وانما وجدت نفسى ادير قرص
التليفون على رفها .
- نائى .. اريد ان اراك فى الحال .
وكان صوتى يرتجف من العاطفة .
وليت صابرة برهة على الطرف الاخر من التليفون .
وصمت صوت هاتنها .. وصوت أفكارها .. وصوت قلقها .. ثم
اجابت فى استسلام .. وبلا وعى .. فى بأس .. كأنها امرأة تمس فى
نومها ..
- طيب ..

كانت تجلس الى جوارى فى العربة .. وأنا اسير ببطء فى طريق خال
على أطراف القاهرة .. وكانت تقول لى :
- هل قرأت الاوراق كلها ؟

- وعشت فيها .. كلمة .. كلمة .
- وهل تجد ان لى حلا .
- انا لا اجد لك ولا لنفسى حلا .
وانفتحت الى فى دهشة .
- وما دخلك انت ؟

- وما الذى جعلك تلقين بين يدي هذه الاوراق على خطورة
ما فيها ؟

- لا ادرى .. ولكنى كنت اشعر دائماً انك لست غريباً عني .. كنت
اشعر انك وحيد تماماً مثل .
وسكنت لحظة ثم اردفت .

- أليس هذا غريباً .. ان يشعر رجل بالوحدة .. ان الدنيا كلها
دنيا الرجل .. انكم تستطيعون ان تفلتوا كل شيء .
- وما جدوى ان تفعل أى شيء .. اننا نريد ما نواه انفسنا ..
- وما الذى نواه انفسك .

- اريد ان اعيش .. اريد ان احب وأنزوج وأنجب ولدا .
- أم تشعر الى الآن انك قد تزوجت وأنجبت ولدا .
- اى انشغل وظيفة زوج وأب . ولكنى لست متزوجاً . ولا اياً .
- ولكنكم تستطيعون تغيير وظائفكم احياناً يا رجال .. تستطيعون
الطلاق والزواج مرة .. وأخرى .

- لميت لدى القوة ولا القسوة الكافية لأفعل هذا .. انا اضعف
من ان اغير حياتى .. وأقوى من ان أقبلها .
- انك تتكلم مثل .. انت الرجل .. من يصدق هذا ؟
وسكنت لحظة ثم قالت :

.. ومع هذا فلا أحد قد أكرهك على هذه الحياة .. لم يزوجك أحد
عنوة ..

.. لم أتزوج عنوة .. ولكن تزوجت خلسة دون أن أدري ..

.. وما ذنب زوجك .. وما ذنب الولد الصغير ..

.. ليس لأحد ما ذنب .. اني لا اشكر أحدا ..

.. ها أنا الوليك .. وأنا غارقة في الذنب حتى أفق .. ماذا أقول ماذا

افعل .. ما الحل ..

.. الحل هو ان تعلم .. أنا شخصيا أبحث عن حلم أتمسك به وأتوه

فيه .. ولكن متيقظ .. متيقظ دائما .. وهذه اللحظة تنذريني ..

.. ولكذك رجل .. أليس كذلك .. والرجل يستطيع ان يسرق هموم

في عمه ..

.. ان عملي مثل زوجتي .. غريب عني .. لا احبه .. لانا أملاً به

وقتي فقط .. ولكن أريد ان أملاً نفسي .. ان الفراغ الكبير هنا ..

داخل .. اشعر اني عاطل تماماً .. اشعر بالملل يقتلني ..

.. أتيك تعذيب نفسك بدون داع

.. أريد ان اشعر بالهايس .. أريد ان أتمسك .. أريد ان أتمسك

لشيء ولو كان هذا الشيء ارتكاب جريمة .. اني أحيانا أحمس الجرم لانه

ارتكب جريمة في غل .. أنا أريد ان اشعر بالقتل نحو أي شيء ..

.. أم تحب .. أم تشعر بالحب مرة في حياتك ..

.. أحيانا أفتن نفسي اني احب هذه اوتلك .. ولكني لا أستطيع ان

أستمر في الكذب على نفسي طويلا ..

.. لا شك انها تكون مفاسد مسلية

.. إنها تكون مسلية في البداية .. لكنها تكون قاتلة في آخرها .. حينما

اشعر اني قد فقدت القدرة على المساعدة الى الأبد ..

.. انك تبالغ .. لا شك انك تبالغ كثيرا .. ان الدنيا فيها لحظات
سعيدة بالرغم من كل هذا .. اني أحيانا أجد السعادة في أشياء صغيرة
جدا .. في نظرة من عين ولدي ..

كانت تحاول ان تسري عني .. وكان يبدو علي وجهها انها تتسمر

بالراحة .. وكنت اشعر بالراحة لأنني وجدت انسانا يأمن معه .. وأمل

معه .. وأسخط على الحياة معه ..

أكان حيا ..

أكانت اثنائية منا نحن الاثنين .. كل واحد يجد نفسه في الآخر ..

يجد مصداق حياته مائلا أمام عيني .. لا أدري ..

كل ما اعره اني كنت أريد ان أتكلم .. وأتكلم ..

لم أكن أريد ان أكف عن الكلام ..

وكنت اشعر ان الوقت ضيق .. ولأن ما أريد ان أقوله كثير .. كثير

جدا ..

ولم أفق من الحلم التي كنت فيها الا حينما ينهق الى ان الوقت

متأخر وأنا يجب أن تعود الى البيت ..

ولكني ما كنت أعود وأستقر وحدي في غرفتي حتى شعرت بمساحة

شديدة الى ان أكلتها .. وما لبثت ان رجعت الساعة لي تزد ..

كانت وحدها ..

وقالت لي انها كانت على وشك ان تطلبني ..

شعرت بمساعدة لا توصف .. وقلت لها في أسف ..

.. أنا اشعر بفجس شديد .. لأن قضيت كل الوقت معك .. وأنا

أحدثت عن نفسي .. كانت اثنائية مني لم أكتشفها الا حينما عدت الى

البيت .. اغتفري لي سوء أخلاق ..

.. انك دائما تحاول ان تحمل نفسك دنيا .. لماذا تضطهد نفسك ..

- انا لا اضطهد نفسي . ولكنى لا اريد ان اكون هذا يضاهى الى
هوليك . لا احب ان اكون طفلا كثير الصراخ يضاهى الى اطفالك
فلديك ما يكتيك .

- انت لست طفلا . انت عجوز جدا . بخيل الى انك ولدت
عجوزا كهلا . اننى اتمك فى انك عرفت الطفولة يوما ما . ان
الطريقة التى تقى بها . والطريقة التى تنظر بها . هي طريقة رجل
كهل جرب كل شيء . وانتهى من كل شيء . . . وليس من كل شيء .
- هذا صحيح . . . انا اشم احيانا أنى عجوز جدا .

- اترك نفسك على سجيته . لا تضطهد نفسك بكل هذا التمكير .
دعنى اكون طبيبتك النفسية . .

- حاضر يا دكتورة . . وماذا عندك من تعليقات اخرى .
- حذار من المفامرات المسلية . . فان عليك السجوز لم يعد بمحتملها .
- حاضر .

- وابحث لنفسك عن عمل تحبه . . عمل مضى مرهق لتشتغل نفسك
به طول النهار وتعود متعبا لتنام .
- لقد وجدت هذا العمل من الآن .
- ماهو . .

- انت . . انت ستكونين على المضنى الذى احبه . . وأشتغل نفسي
به طول الحياة .
وسكنت لحظة . . ولم بحب . . وجمعت صوت لهناتها . . ثم قالت
ياضطراب :

- لقد اخترت عملا يائسا . . خاسرا . . لقد اخترت سما تتعاطاه ولم
تقترب دواء . . انت تريد الموت لا الحياة .

- لقد فقدت القدرة على ان اعيش كما اشتهى . . دعنى أمت كما
اشتهى .

- انا احمل من الذنوب ما يكتفى . . لا اريد ان احمل ذنوبك انت
ايضا . . لقد حطمت حياتى . . ولا اريد ان احطم حياتك معى . . انت
اغنى من ان اختار لك هذا المصير . . انا اريد لك السعادة .
- انت سمادى . . انا احبك . . احبك يائسا .

- وسكنت . . هذه المرة سكنت طويلا . . وجمعتها تيكى بحرقه .

كان لا بد من السفر الى الصيد .. ومباشرة الزراعة فعلا .. فلا
احد هناك سوى الخولى .. وهو يفعل كل شيء على هواه .. يزرع
ويجمع ويحصد ويبيع ويشترى .. ويكتب ما يشاء من مصاريف
وايرادات .. ويأخذ ما يحلو له ويدفع ما يحلو له ..
كان من الواجب عمل شيء ..

وضايقتى كلمة الواجب ..

وحيا بدأت أعد الحسابات للسفر احسست ان ارضى هى التى
تلكى .. ولست انا الذى املكها ..

هى التى تبيع على أكتافى .. وتركبى .. وتسوقى الى حيث
لا اريد .. لان الواجب كذا .. وكذا ..

أف من الواجب ..

الصيد ؟

مالى انا وماال الصيد ؟

انا اريد البقاء بالقاهرة .. الى جوار الدفء الجديد الذى اخذ
ينبت حولى ..

فى الشارع الذى اخضررت اشجاره فجأة وأورقت وأزهرت ..

أمام الشياك الذى تنادى منه الشمس ..

والثمنين الذى يمس فى أفق بكلمة الحب ..

ولكن الواجب .. الواجب .. وشعور بالهجل يلاقي غاصاغر فى
نظري نفس الى مجرد طفل يبذل الثروة التى جمعها ابوه ..

وأكره نفسى وأكره ثروى .. وأتقى التخلص من الارض التى
تقيدنى ..

ان ابقى ما زال يمكنى ..

ان الفداين اللقاة على أطراف سوهاج .. هى روحه .. هى

كنت أقف أمام الحوش .. رأسى تحت الخنفة .. والماء ينزل على
شعري .. وصباى ما زالتا متقلتين بالنوم ..

ومن خلق كانت أمانة تحمل الفسطة .. وكنت اجمعها تتكلم ..
وصوتها مبحوح من البكاء طيلة الليلة الماضية .. ولكنه ثابت .. جاد ..

فيه نبرة شديدة لم أسمعها :

كانت تكلمنى عن اطياف فى الصيد .. وعن خطاب جاء من عند
الخولى .. يطلب نقودا للزراعة .. وكانت تقول ان والدى كان يذهب

بنفسه .. ويأثر العمل .. ويفتش على ارضه وزراعته .. وأنى أهملت
كل شيء .. وأن القلاحين يسرقونى .. وأنى سوف افقد املكى

وتروى اذا لم افتح عيني جيدا .. وكانت تتكلم بشدة ..

- لا بد ان تسافر للصيد .. وتأثر ارضك بنفسك .. ان أباك لم
يجمع هذه الارض بسهولة .. لقد ضيع فيها عمره ..

وأحسست بالهجل من نبراتها ..

وأحسست بالضيق لأنها ذكرتني بالمسؤوليات ..

وأخفيت وجهى فى الفسطة ورحمت أحلك رأسى عدة مرات .. وأنا
مازلت اضغ ذلك الضيق الذى استولى على ..

ونذهبت الى مكتبي .. ورحمت أقضى الحسابات ..

رغبته .. هي كلمة الواجب التي كان يطاردني بها وأنا صغير .



وصفر القطار طويلا . وألقيت بنفسى فى عربة النوم ..
وأحسست بهنقى يصفو وروحي تهدأ .. وذابت الفوضىعة التي كانت
تأخذ بتلابيبي كما تذوب الرغبة التي تمسك وجه الفتنجان .. وبدأ ذلك
النوم الغامض الذي يعبرني يطفو شيئا فشيئا من أعماقي .
ها أنذا في النهاية ملق في عربة تجرى من بلد الى بلد . من مكان
غريب الى مكان غريب . لا شيء يشعري بالألفة سوى إحساس في
داخل أطويه عليا .. على خيالها .. على اسمها .
اسمها يشعري بالألفة .. بأني مع نفسى .
وتذكرت كلياتها وهي تقول لى :

- أنت تعذب نفسك بدون داع .. أنت تبالغ .. تبالغ كثيرا .. ان
الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا . انى أحيانا اجد السعادة
في أشياء صغيرة جدا .. في نظرة من عيني ولدى .. أنك عجوز جدا ..
يعيل الى أنك ولدت عجوزا كهلا .. ان الطريقة التي تمشي بها والطريقة
التي تنظر بها .. هي طريقة رجل كهول جرب كل شيء واتسبى من كل
شيء ويش من كل شيء .. لذا تضطهد نفسك بكل هذا التفكير ..
وصوتها الحنون وهي تسمى :

- انت اغلى من ان اختار لك هذا المصير .. انا اريد لك
السعادة .. لقد حطمت حياتي ولا اريد ان احطم حياتك معي .. انا
احمل من الذنوب ما يكفي .. ولا اريد ان احمل ذنبك انت ايضا .
بل احمل ذنبي انا ايضا .. وعطسي حياتي .
انا اريد ان اشعر بالولاء لأني شيء ولو لدماري

اريد ان اعثر على رغبتي الضالة .. ونفسي المفقودة .. فيك انت .
نأني .. نأني .

وظل اسمها في أذني .. طول الطريق والمجلات تحلجل تحلجل تحت الوسادة
حيث اضع رأسي .. والعربة تهتز واللمبة الكهربائية في السقف ترتعش
ويجيو نورها ثم يتأني .. ثم هدأت مرعة القطار .. وصمتت صوت
الغراميل .. ثم توقف القطار غاما .

وطننت انها محطة .. وفتحت النافذة ولكن لم اجد محطة .. ورأيت
القطار يقف في العراء وسط الحقول .. والدنيا ليل .. والظلمة حالكة
ولا صوت هناك سوى صوتنا ونحن نظل من النوافذ وتكلم .. يقاطعنا
بين حين وآخر صوت ذئب يحوي في الحقول .
وقال الكساري ان هناك عطلا في الخط وأن القطار سيتوقف نصف
ساعة

ودخلت عريق وثبتت في مراصي وطرقت في نور اللمة التي خبا غاما
ونقلت أجناني .. وقت .

لم أتوقف الا والكساري يدق الباب بشدة ويصيح : سوهاج .
وقت الى حقيقتي أسويا .. ولپست تياي وفتحنت الباب وتزلت
مسرعا .



سلامات .. والده سلامات .. كيف الحال في مصر .. طيبون ..
حلت البركة .
ده الصميد ثورت .
الف حمد الله على السلامة .
روح يا واد لعلمك يشاي عيط عليه .. جبول له ان اليه وصل من
مصر .. والده سلامات .. والده مرحبا .. مشتاقين .

الاخبارية وصلتنا ليلة البارحة ، جينا لقونا في الحلزونة (الأتوبيس)
ومن الصبح واحنا واجفين عاد .. كل ما بيحي جطر نحول اهو وحصل
ونظل ما نلا جيش حد .

ان شاء الله تكون ميسوط .

كان المتحدث هو سركيس افندى .. الكاتب .. والحولى الذى يدير
زراعتنا .. وكان يهب واقفا كل دقيقة ويشد على يدى ويهزها في عتف
وصنف .

ان شاء الله تكون ميسوط ..

وأنا في كل مرة أهب واقفا ضله .. وأشد على يده .. وأحرى شه .
وكان يصاحبه فلاح طويل هزيل كالح البشرة .. أنسيب النسر ..
يشبه الجرادة .. عيناه ضيقتان حراوان غائرتان .. وهو لا يكف عن
وضع اصابعه قريبا بين لحظة وأخرى ويفركها بشدة .

وركبنا عربة بالأجرة أخذتنا الى الارض .

واستقبلنا الخفراف باطلاق النار في الهواء .

وتجمع الفلاحون حولنا .. وكادت يدي تتخلع من كثرة المرحاب
والسلامات .

وكان الجو صحو والسماء صافية .. ولكن كنت اشعر بانقباض ..
كانت الوجود التي تنبسم حولي هضمية كالقمة شواء .. وكانت ابتسامتها
تساحبة .. وكان فيها شيء ثقيل .. مثل الثراب الذى في الجسو ..
والجفاف والسخونة والهواء الراكد .

ودخلنا الامتراحة .. وكان الخفراف ما زالوا يطلقون النار في الهواء
والحمام يطير في فزع من أبراجه ويعلق فوق رؤوسنا .

وكان سركيس افندى ما زال يثرثر ويتكلم كلاما كثيرا .. يقطعه بين
حين وآخر هاتما ..

انشاء الله تكون ميسوط ..

وجلست ادخن وقطعت الدفاتر أمامي .. وجرت عيني على السطور .

١٢ نفر لمسيزق القندان قبح يواقع ١٢ قرش يومية للنفر .. المجموع
١٤٤ قرش ..

٦ أنفار لسقية القندان يواقع ١٢ قرش للنفر .. المجموع ٧٢ قرش .

٣ أكياس سماد للقندان يواقع الكيس ٥ جنيه .. المجموع ١٥ جنيه .

احتياجات الماكينة عن اربع سقيات للقندان ٤ جنيه .

أجرة مشال المحصول للجرن بالجمال ١٢٠ قرشا .

اموال مقررة ..

٢٥٠ قرش رسوم بلدية .

١١٠ قرش ضريبة جراد .

ومررت على الارقام بعني عدة مرات .. دون ان افهم شيئا .

وخرج سركيس افندى الى الحقل ليحضر فرسا اركبه .. وبقيت

وحدى مع عوضين الفلاح الذى يفرك عينيه .

سألته : لماذا يفرك عينيه هكذا فقال انه ذهب الى النير البارحة

وأخذ ترابا من كنيسة المدرسة وضعه في عينيه .. ثم ايشم وأردف :

- دى الحمد لله كثير .. دى كانت وازمة البارحة زى عين الجمل ..

قدس ايونا هو الى طيبيا ..

ولم اجد كلاما ارد به على الرجل .. وعدت أقرأ الحسابات ..

١٠ أنفار لرمى الكياوى يواقع ١٢ قرشا يومية للنفر .. المجموع ١٢٠

قرش للقندان .

نصف أردب قبح تقاوى يبلغ ٣ جنيه ..

وتنتجع عوضين .. وفرك عينيه وسعل .. وهمهم ..

- طيبون .. دى الصعيد نووت .

وسكت قليلا ثم اردف :

.. انا لى مصلحة عندك يا سعادة اليك ربنا يجليك .

.. خير .. يا عوضين .

ورفعت رأسى من الدفتر ونظرت اليه ..

.. والله بدى كام فدان أآجرهم منك السنة دى عشان الزعة
التشوية .

.. أنت مش بتشغل عندنا ..

.. لا والله . انا مأجر كام فدان جاركم فى حوض احمد بك .. وبالى

أزوع كام فدان عندكم السنة بالايجار .

.. نأجر لك يا عوضين .. اما ييجي سرريس افندى .. تشوف .

.. ربنا يجليك يا سيدنا اليك .

وخطر لى ان اسأله عن الزراعة .

.. والزراعة حالها كويس السنة دى يا عوضين .. محصول القمح

أزبه .

.. عال والحمد لله .. البركة فيك .

.. ريمت كياوى قد إيه فى الفدان ؟

.. كيس .. الخمس فدادين خدوا ١٥ جنيه كياوى .

.. وكنت مشغل أنظار كثير ..

.. فدان أنظار فى الفدان .

وكنت انظر فى الدفتر وأقرأ الأرقام العالية التى كتبها سرريس

افندى ..

كان من الواضح انه مبسر فى كل عملية على اساس انى لا افهم
شيئا فى الزراعة .

وأغلقت الدفتر .. وأنا افكر فى حل ..

وحضر سرريس افندى معه المرس وركبته وانطلقت ..

وجولت فى الفيضان المجاورة أسأل الفلاحين .. وتأكد لى ان الخولى

يسرق منى .. ومن عرق الفلاحين .. ومن كل حبة قح وعود قطن .

وعدت وقد صممت على شيء .

ناديت الخولى وأمرته بأن يسلم عهده الى عوضين ..

وقلت لموضين .. انى سوف اعطيه حصة فدادين يزرعها لنفسه فى

مقابل اشرافه على الاطيان وعمله كخولى عندى .

وبيت سرريس افندى ولم يتكلم .. ودعا لى عوضين بطول العمر ..

وانصرفت الى البندرو وأنا اشعر براحة .. وأحس بأنى وعدت الامور

الى نصايها .

وغت فى اللوكائنة .

ولكنى توقفت فى المجر على الحوض يأكل وجهى .. وعلى غير

مفاجيء سرى فى كل البلدة .. ان عوضين وجد مقتولا فى حقله .

والفاعل مجهول .

وحضر سرريس افندى فى الصباح الى اللوكائنة .. وكان يحمل

طبنجة على صدره .. ويصاحبه حفيظ النيط .

وقال لى ان عوضين وجد مقتولا .. الاستيلاء قتلوه على تار بايت

مسكرين عوضين ..

وأردف وهو ينظر الى نظرة جامدة .

.. تشوف حضرتك نعين مين خولى بدله عشان يشوف الارض ؟

.. الى تشوفه يا سرريس افندى .

.. امرك يا سعادة اليك ..

وعاد ينظر الى نظرتة الجامدة الجافية وعيناه لا يثبت لهما ومنى .

وأجبتة وأنا اتجنب النظر الى عينيه .

.. شوقها انت يا ماركيس أفندى .. يس خد بالك من الحسابات
شويه .

.. أنا محسوك يا سعادة اليك .

ودار على عقبيه وخرج ..

وظلت خطواته تلاحق وتدوى في اذني مدة طويلة ..

وأذكرني اليأس ..

ولم استطع ان ابريه نفسي من الجريمة .

لقد قتلت رجلا ..

بعد ساعة من وصولي الصميد قتلت رجلا ..

وتذكرت كلام الخواجة مرقى ..

ان الارض هي لحم الفلاح .. والذي ينتزع من الفلاح ارضه ينتزع

لحمه .. ولا فائدة من ان تقول للفلاح انت تغرق القانون .. لماذا يعنى

القانون بالنسبة لرجل جاهل ..

ان رجليتي تفوسان في الطين .. وحياته ينش فميا المراهي وينكه

التسليف وتالمالك والمستاجر ومركيس أفندى .. كل واحد يطلق عليه

الرصاص .



ومر يومان على اقامتي بالصعيد .

النتيجة على الحاطط تقول ان في عام ١٩٥١ .. ولكن كل شيء

حولى على بيظه جدا .. عشرات الستين وراء التاريخ .

القسوة في كل مكان .. في الحر .. في التراب .. في الحفاف .. في

الارض .. في الفيضان .. في الوجوه .. في العيون .. في الفم الذي

يدفقه كل انسان في مقابل اللقمة ..

الفلاح الذي يمرض مقدما بالبهااريسيا والملاريا والرمد قبل ان يعمر
وجوده .. ثم يمضى يلهث ويمجر قدميه .. ويمزق .. ويحترق .. ثم ينازعه
جاره على قيراط برسيم ويقتله ..

والفلاح الآخر المخطوط الذي يملك قدانا ويعيش كالجراة على حافة
الترعة .. لا يعرف السبيل ولا الساعة ولا الدكتور .. ثم يصع حفته من
تراب التربة في عينيه .. ويغطي رجله مبروك حجابا يطلقه على صدره
ليشفي .. يينا يذهب المبروك ليداوى عينيه في القاشرة عند طبيب
العيون ..

والتاجر الرقيق العبيط الذي ينظر الى البورصة كما ينظر الى السماء
والقدس .. وكرامات الاولياء .. ويغسل بقياه .. ويموت بقاء كما يموت
جاره دين ان يعرف السبيل .

واين لعمدة الوارث الذي ينفق امواله على راقصة في مصر ويموت
من الحمر والتفادرات .

كل هؤلاء يتبعون ويتعاونون .. كأنهم في غاية .

قسوة الحياة تبرز ارواحهم .. وأغلاهم .. وتحولهم الى أجلاف
غلاظ .

وقد أحسست بهذه الظلمة تنسرب الى وتدفعني الى رفع صموقي
بالسباب والشتم .

سنة واحدة اعيشها هنا .. واصبح مثلهم .. اتكلم بلفظة .. وأقتل
واسرق وأتهب ..

لقد نسيت ذقني فلم أعد أحلقها .. ونسيت هندامي .. ورباط
عنتي

ونسيت الرجل الذي قتل من أجل .. عم عوضين .. الذي أطلقوا
عليه الرصاص .. لأنني اخترته ليدبر زواحي .

من الذى قتل عوصبى .

سركيس اخذنى ؟

المفترء يتعريض من سركيس اخذنى ؟

انا بىبائى ؟

الفدادين التى جئت اجزى من القاهرة لأجمع ايرادها ؟

الحر . القراب . الجعاف .

لقد قيدوا الحادث فى دفتر البوليس ضد مجهول . ولكنى ارى
المتهمين جميعا . وأنا اقدمهم . ليس فيهم مجهول واحد .

ليس لى أن التحدث عن الغلظة .

ان القتل عمل غليظ فعلا . ولكن تناول النقود الممسبة بالدم
وإغافها فى هدوء فى يارات القاهرة بين الرقص والصحك . عمل أشد
غلظة .

وشعرت باليأس . وباتنفور .

وشعرت بغلظة هذه التجارة التى تأتى أرباحها كل عام .

وشعرت أنى شريك فى كل الجرائم التى حدثت فى زمام العناية .
منذ ان وضعنا يدنا عليه .

وعند الظهر . كان سركيس اخذنى يتجول فى غيط القطن فى
مظاهرة من الاولاد الصغار الذين يجمعون القطن ويقتنون . وكان
يحاول ان يظلمنى على حسن ادائه وحزمه . يطارد الاولاد ويشغط
فيهم ويجرى خلفهم بعضا قصيرة من الخبزآن . ويضربهم . وكانت
الشمس مشرقة فوق رؤوسنا . تلصنا بشواط من نار .

وأغنى على احد الصغار من طول وقوفه فى الشمس وحمله الى
الترعة ليرشوا على وجهه الماء . وكانت يده النحيلة مضغوطة الى

صدره تقبض على كسرة خبز جافة .

واكتفيت بما رأيت . ولم انتظر نزول المساء . واخفت قطار العودة
الى القاهرة . وقد سمعت على ان اطلق هذه الارض الى الابد .

وكان اول شيء فعلته حين وصلت القاهرة هو انى كلمت نائى
لأقول لها :

.. سوف اترك الارض نهائيا . سوف ابيع فدائين واقنع ورشة
لاصلاح السيارات اعمل فيها كمهندس . عملى الوحيد الذى أقتنه .
انا لا انسى للأرض . ليست لى الشجاعة لأقتل وأسرق .
ان رؤية القسوة ترهقنى . والاستمرار فى هذه الحياة التى اختاوها
اى لنفسه مستحيل . مستحيل . بالنسبة لى .

.. وحياتك . والمستوى المادى الذى تعيش فيه . كيف تترك
نروتك . ولبن تتركها .

.. انى لا اتركها . ان الفلاحين يضعون يدهم عليها . يستأجرونها
ولا يدفعون مليا . ولا يستطيع ان أقاضيهم . لقد تبت . تبت من
المناظر التى رأيتها .

.. أنت طيب اكثر من اللازم .

.. لست طيبا . ولكنى لا أستطيع . لا أستطيع ان اكون شيئا آخر
غير نفسى . افضل ان اعيش حياة صعبة املكها . عن ان اعيش
حياة كبيرة تملكنى . اريد ان اكون حرا . اريد ان أقطع صلتى بكل
ما يقرض على واجبات لا احبها . انا اكراه الواجبات كلها .

.. وهل تستطيع الخلاص من واجباتك كلها . انى احاول الخلاص
من واجباتى الزوجية منذ سبع سنوات ولا أستطيع . لا أستطيع سوى

ان أجمن فقط .. الجنون هو الشيء الوحيد الذى وصلت اليه .. وأنا
لا اريد لك ان تحين مثلى .. تستطيع ان تتخلص من أرضك .. ولكن
ستبقى هناك واجبات على كتفك لا خلاص منها ..
.. نائى ارجوك ساعدينى .. لا تسدى أمامى الممانعة .. لا تبقى
وجهى حائطاً غليظاً .. هات يدك لتعفر سويًا حفرة في الجدار تهرب
منها الى عالم تحبه ..

.. تهرب الى ايبى .. انت تعلم ..

.. لا توقظى اذن .. دعيني احلم .. دعينا نحلم معا .. نائى ارجوك ..

.. يا حبيبى ..

.. نائى ..

.. يا حبيبى ..

.. اريد ان استريح .. ان اضع رأسى على صدرك واستريح .. ان
أجد نفسى بين ذراعيك .. ان اشم بلحظة رضى .. انا الهت من التعب
هاربًا من عالم لا امره .. ولا احبه .. اليك انت ..

.. يا حبيبى ..

.. تعالى يا نائى

وسكت .. وصمتها يبكى ..

- ٨ -

كنا وحدنا انا وهى ..

وكنتم انظر الى عينها في شغف .. ولا انصع .. وأنطلم في ملامحها
الدقيقة .. وتصيرات وجهها .. وحلجاتها .. وأستشف نفسها .. وأهيم
في وجودها وأنصع فيه في استمتاع وتلذذ عميق ..

وكانت نظراتنا تتسكك وتتشبث ببعضها .. وتلود ببعضها .. وتسعى
كل الى كفها الصغير لتأخذه وتتغم عليه في حنان ..

ثم ارفع يدها الى شفتى أقبليها .. وثام شفتاى في باطن يدها ..
وأفغر بها تقبلى في حدى .. وأشم يشفتها تبشان عن شفتى وهما
ترغبان ..

وتلتقى في فرحة .. وتغيب عن وعينا .. وعن الدنيا .. وتذوب في
بعضى .. في قبض من النشوة .. منتهى النشوة ..

احبك .. احبك جدا .. احبك طوول عمري .. احبك الى ان اموت
وبعد ان اموت .. وقبل ان اولد .. احبك .. احبك .. وما لزوم الكلام
والشعور يلحقنا .. يسكتنا ..

نائى .. انا لا اريد شيئًا سواك انت .. بسوى هذه اللحظة .. تنتظر
قليلا لأضم بها .. انا لا اريد ان اتبقي على هذه اللحظة وقد انتهت افى
أجد فيها سبب وجودى .. لقد خلقت من اجل هذه اللحظة .. خلقت

لاكون لك .. ناني .. هذه لحظة تبدأ من عندها اغراحي وألامي ..

وتلتق شفتانا في فرحة .. في لذة ..

هل أنا احلم .. قيليبي لانيق .. بل قيليبي لاحلم اكثر ..

.. يا مجنون .. يا مجنون ..

.. انا لست مجنونا .. انا كأعقل ما اكون طول عمري

.. اذن فأنا المجنونة .. أنا .. انا ..

.. انت حبيبي ..

.. يا حبيبي يا مجنون ..

.. قيم تفكرين ؟

.. افكر في اتي ولدت من جديد .. وأنى اعيش مصك في عالم ليس

فيه سوانا .. عالم لا ينظر الينا في حسد وحقد .. عالم لا يوقفنا من

سمادتنا ..

.. لا اهمية للعالم مادعنا معا ..

وأسكت في في خوف وهي تتسنى لتأكده من وجودي بجوارها

وهست :

.. لماذا تتأخر الآمال هكذا دائما .. لماذا تسقط الامطار بعد ان يموت

الربيع من الجفاف ..

.. ان الزرع لم يمت .. انه ما زال ياتنا بمحضرا ..

ويكث على كتفي وهي تقول بصوت متهدج :

.. يا وهي الجميل .. يا وهي الجميل ..

.. أنا لست وهبك .. انا حقيقتك ..

.. ابدا .. انت وهي .. انا لا أستطيع أن اسمك بك .. انت تفر

من .. لا اجلك بجوارى ..

.. انا بجوارك دائما

.. انت في وهي .. في قلبي .. في مهجتي .. وسواد عيني .. ولكنك

لست في بيتي .. لست في واقعي .. عرق كفك ليس في الفراش الذي

اذا لم فيه .. شعرات رأسك ليست على وسادتي .. ثيابك ليست مع ثيابي

في سلة الفضيل .. بقايا الخبز الذي تأكله ليست على مائدتي ..

قصاصات الورق التي تتحلف منك لا أجدها على ارض غرقتي .. ولذك

ليس مني .. وولدي ليس منك .. صوت سعالك الحاد لا اسمعه في

حجراتي الباردة .. أنا اعيش في غربة .. اعيش على وهم وجودك على

امل رؤيتك .. هل تعرف كيف احبك .. هل تعرف كيف تحب المرأة

الرجل .. انها تعلم ان تكون مكانه وطعامه وشرايه .. تعلم بأن تجمع

نشاته على راحتها ..

ان الرجل يعلم المرأة في شفتينا ثم يمضي في طريقه .. اما المرأة فهي

تعيش في تلك القبله ..

أتعرف لماذا أتيت معك الى هنا .. لأتزوج من وجودك بمؤونة اعيش

بها .. لأزود وهي بأروية من الخيالات يتغذى عليها بقية حياته ..

لأذكرك اكثر .. وأتعرف عليك اكثر .. وأغشطيك في لحظات وحدتي

وصمتي ولكن لن اعود الى هنا .. لن اعود الى لقائك ابدا .. لأن هذا

ليس حيي .. ليس انا .. ليس انا ..

واخذت تهزني بشدة .. وهي تكرر كلماتها بصوت متهدج .. هذا

ليس حيي .. ليس انا .. لن اعود الى هنا ابدا ..

ثم انفجرت تيكى ببرارة ..

وصرخت وأنا اضمها الى صدري في حان :

.. سوف نزوج .. سوف نزوج .. سوف أطلق زوجتي ..

وأزوجه بعد أن يطلقك زوجك ..

ونظرت الى في فزع هائقة بين دموعها ..

- مستحيل .. مستحيل .. هذا هو المستحيل .. لا أستطيع ..
 ايذا ..
 - ولماذا لا تستطيعين .. الا تحبينى ..
 وهبت في ضراعة ..
 - نائى .. نائى
 - اخاف من الله .. ومن رجلى .. ومنك .. ومن عيون اولادك ..
 ومن عيون اولادى ..
 - كل هذا لن يمتنى .. ولن يمتنع ..
 - هناك شيء فوق كل هذا يمتنى انا ..
 - ما هو ..

- نفسى .. اخاف من نفسى .. إن الماضى يتغلغل في حواسى .. أنا
 لم أتزوج زوجى كرها ولا غصبا .. لقد .. ارتضيته .. صحيح انى لم
 أستطع أن أحبه .. ولكنى عاشته .. إن الرجال لا يسرقون العشرة كما
 تعرفها النساء .. لأنهم يعيشون كل وقتهم في التسارع .. ولكن العشرة
 تتغلغل في المواسم .. في الدم .. في اللحم .. إلى أن أكون خالصة
 لك .. سوف تصود حياكى كلما دق علينا ولدى الصغير باب غرفة
 النوم .. وكلما تطلع إلينا يعينيه الواسعنين في تساؤل .. لن أستطيع أن
 سكته حين يقول .. ياأبا ..
 انه أفضالى التى تلهت خلق ..
 رسكت لحظة ثم رفعت وجهها وقالت :

- وانت كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق .. كيف تواتيك القوة
 لتنتظر في عينيها وأنت تلقى عليها العين .. ومينا يسك الطفل بذليلك وأنت
 خارج .. كيف ستجد القوة لتتقضى يده الصغيرة عن ثوبك .. انه
 أفضالك التى فصلتها .. كيف تنكرها ..

- لقد حدث كل هذا خلصة دون ادري ..
 - ولكنه حدث ..

- سوف اتحدى الدنيا كلها لأحصل عليك ..
 - سوف يتحدى الدنيا كلها .. ولكنك لن تستطيع ان تتحدى
 نفسك .. لن تستطيع ان تتحدى أفضالك .. ان أفضالك هي ذراعاك ..
 - سوف اقطع ذراعى لأصل اليك ..
 - لا أحب ان أراك مقطوع الذراعين .. لقد احببتك في كمالك
 وعذابك وضعفك .. ولم احبك وأنت تقبى وتقتل وتقطع رحلك
 وأوصالك .. سوف تصبح رجلا آخر .. وسوف اصبح امرأة أخرى ولن
 يتعرف كل منا على صاحبه .. وسوف تكون تمييزين ينتقم كل منا من
 الآخر ..

- سوف احبك الى الأبد معها حدث ..
 - اما انا فأعلم جيدا ماذا سوف افعل اذا تزوجتك ..
 - ماذا ستفعلن ؟
 - سوف انتقم منك ..

- انت مجنونة .. انت مجنونة ..
 - انا لا أستطيع ان اخون نفسى .. الى احبك بنفسى .. وأتقرب
 اليك بروحى وأعشقتك من خلال روحى .. ولو خنت روحى فسوف
 اخونك وأخون الدنيا ..
 - انت لا تحبينى .. انت تكريهينى ..

وبهت لهذه الكلمة فخرج من شفى ونظرت الى صامتة وبكت ..
 وأسكت بها من كثفها .. ورحمت أقبليها في كل مكان من صدرها
 وأهنت ..

- لن يكون في الدنيا حب اذا لم نزوج ..

- ليس في الدنيا حب ..

- لا تقول هذا يا ناني ..

- ان الحب في قلوبنا وليس في الدنيا .. انه في وهنا فقط .. ان

الدنيا لا تحمله .. ولا تستطيع ان تحقه

- لا تقولوا هذا الكلام .. اني احقق حينا اسمعك ترددين هذا

الكلام ..

- ان الواقع هو الذي يبتغنا جميعا .. ان الحب في قلوبنا عميق ..

عميق .. ولكن الحب في الواقع يختنق بالنسوة والغيرة والانابة ..

والصناعة والصادق والمثلل والشجر وأنا لا اريد ان احقق حبي لك

بالواقع .. اريد ان احفظ به في وهي وأغنى به خيالي ..

- سوف تكونين سكنى وبيتي وحياتي ..

لقد فات الأوان .. لقد سقطت الامطار بعد ان جف الزرع

لا تعذب نفسك وتعذبي نفسك .. ولا تفرح كثيرا كالاطفال الصغار ..

انظر الى .. احتضني بذراعيك .. دعني المسك هكذا .. دعني اقل

بالنظر اليك .. دعني اتزود بمؤونه اعيش عليها العمر كله ..

وأخذت تنظر الى في هيام .. وكان في عينيها فرح ..

كانت في عينيها نظرات امرأة تودع شيئا لمن تراه ..

وأصابني عدوى الفزع الذي يطل من عينيها .. وأمسكت بها

أمرها ..

- اتنا سوف نلتقي مرة اخرى .. سوف نلتقي كل يوم .. كل لحظة ..

أليس كذلك ..

وأجابني في نبرة جامدة ثابتة وهي تنظر في وجهي ..

- اتنا لن نلتقي ..

- مستحيل .. مستحيل ..

- انا لا احب هذا اللقاء المروق .. انه ليس حبي ليس اتنا ..

ليس اتنا ..

- سوف تزوج .. ولحقق الحب الكبير الذي تخيلين به ..

- ان حبي يتحقق في قلبي وحده .. في وهي .. ان كئي الامكنة

تضيق به .. وكل المحول تضيق به .. انه المستحيل الذي احتضنته في

ضلوعي .. وقد ضاقت الدنيا به على رحابها ..

وانهارت تبكي .. وكل جسمها يرتعش ..

ونظرت الى من خلال دموعها .. وغمقت ..

- لماذا أعذبتك .. لماذا تركت اعديك هكذا .. لماذا لا تقتلني ..

- ناني .. كئي هذيانا ..

- لماذا لا تقتلي ..

ونظرت الى .. نظرت الى في شوقي طفلة .. وهي تستعفي بنظراتها ..

- هل عندك حل ؟

- الحل هو ان اتزوجك ..

وصحكت ضحكة هستيرية وغمقت :

- ايها المجهز .. انك لا تصلح زوجا لي .. اني ارفض ان اتزوجك ..

وقبلني في جيبتي وهي تقول ..

- اريد ان احفظ هذه الخطوط الرفيعة التي في جبينك خطا خطا

حتى اذكركها كلها وأنا وحدي .. وأستحضر صورتك في خيالي ..

وأراك أمامي هكذا .. وأنا جالسة وحدي في البيت ارتعب من البرد ..

- ناني .. لماذا جئت معي الى هنا .. لماذا تقولين هذا الكلام ..

ونظرت الى .. ولم تتكلم .. وضحكت ضحكة غريبة يازجها البكاء ..

- لماذا فعلنا كل ما فعلناه .. لماذا تمكين يدي هكذا .. كأنك

تتصرتني ..

- أريد أن اغتسل يديك لأصل إلى روحك .. أريد أن استولى على روحك .. أريد أن آخذ روحك ..

وضحك في حزن :

- أنت تذبذبى ..

- الدنيا هي التي تذبذبى .. الدنيا هي التي خدعتنا .. الدنيا ادخلتنا في غرفة مظلمة لتختار ملاسنا .. فلم نستطع أن نتعرف على نيايا في الظلام .. وخرجنا كل واحد بلبس لبسا غير لیس .. ثم غرقت ملاسنا من ضيقها .. ولبيت هدونا الحقيقة من طول وضعها على الرف .. وفي النهاية لم تبق لنا ثياب نستر بها أنفسنا ..

- سوف تفصل لأنفسنا نيايا جديدة ..

- سوف نفصلها من الحرق القديمة .. ولن تسترنا الا لسطات تمزق ثايبه ..

- نأى .. لماذا تتكلمين بكل هذا الیاس ؟

- لأنى لا اجد حلا ..

- ولكنك تجيدى الى جوارك .. أليس كذلك ..

ونظرت الى في اوتياب وأخذت تتحسسنى لتتأكد من اى موجود قملا ..

- نعم .. هذا انت كلك حولى .. كلك حولى ..

وامتلأت عينها دموعا ..

ودقت ساعة المائط عشر دقائق .. فرقمنا رأسينا في وقت واحد في فزع ..

- الساعة بلغت الماشرة .. لقد سرقنا الوقت .. يجب ان اعود حالا ..

وكانت الدقة الاخيرة ما زالت تنوى في افنى .. وكان صوتها كئيبا ..

ووقفت تسوى ثيابها وتصفق شعرها أمام المرآة .. وكانت تصطفي ظهرها .. وكان قلبي يبط .. يبط في ضلوعى .. حتى يصل الى قدمى .. وأسرت إليها احتضنها ..

- لا تنزل الان ..

- كيف ؟

- ابقى لحظة .. أريد أن اكلمك قليلا ..

- ماذا تريد ؟

- أريد ..

وتلصحت .. ولم أعرف ماذا كنت أريد ..

كنت أريد أن أقول أى كلام لأحتفظ بها أطول وقت أمامى .. أتطلع إليها .. وأشم عطرها .. وأرى شفيتها وهما تفرجان .. وأرى عينها .. وهما تحتلان بالثوق ..

كنت أريد أن أسمع صوتها .. وهي تجاوبنى بأى كلام .. وقلت لها فى أسى :

- نأى .. لا أريد أن احس ائى سوف افقدك .. ان هذا الاحساس

يقتلى .. يقتلى ..

- انك لن تفقدنى .. سأعيش لك دائما ..

- هل هذا صحيح ؟

- لا يوجد شيء صحيح فى حياى غيرك انت ..

- ولكنك ذاهبة الان .. أليس كذلك ؟

- اينما ذهبت فسوف تكون معى .. فى كل بيت ادخله .. وفى كل كتاب اقتحه .. وفى كل نفمة اعزفها ..

- لا أريد .. لا أريد هذا اللقاء .. أنا أريدك انت لحما ودم ..

ونظرت الى في انشاقى .. ولم تتكلم ..

وخلف العيين المشفقين .. كانت تطل الحيرة .. حيرة لا حد لها .
كانت تسألني بعينها .. ماذا استطيع ان افعل يا حبيبي .. انا احبك
وأريدك .. واقفك .. ولكن ماذا افعل .. كانت تنسحب في فائق قطع . في
يديها .. ولا تحرق ولا اجدها .. وكلانا يمسك بالأخر
كنت اقرأ كل هذا في عينيها .. وأنا أنظر فيها .. ويداي مطبعتان
على يديها ..

ولم لجد شيئا اقله ..

وصحبتي في عيني ..

وليت صامتا طول الطريق ..

كنا سجينين نحن الاثنين .. سجينى عاطفة لا تستطيع الخروج في
التور عاطفة تلوذ بالظلام .. عاطفة تماقبتا على السعادة التي تسرقها
باسمجن .. والحياة في الخفاء في فزع .

وكنت اتساءل .. لماذا تصاقب في جهنم .. والعذاب ينطبقنا على
الارض .

الحزاء يلحق بنا لحظة يلحظة .. قبل ان نلتقط انفسنا .

وكنت انصر بالضييق .. وبالحرز .. وبأني مظلوم .. وأحسنة الفضلاء
على السكينة التي يعيشون فيها ..

كنت أتعذب ..

ولم اجد ما اياه سخفى سوى المرة الحديد التي اركبها .. فغسقت
بقدمي على البزير وانطلقت اطيء في سرعة خطرة .. وكان الاحساس
بالخطر يريح اعصابي .. ويسكت الضجة التي في دماغي ..

وكانت نائي تنسحب بذراعي في خوف ..

.. ماذا دهك .. لماذا تسرع هكذا .. هل تريد ان تنتحر .. هل تريد

ان تموت .

هل اريد ان اموت . وما ..

.. هل تحيين الحياة ..

.. نعم احبها .. لأنك فيها .

.. هل تجزيين من الموت اذا متنا معا ..

.. لماذا تقول هذا الكلام . انت تفزعني ..

وتنظرت الى بعينين واسنتين يغمرها الحسان ..

وارتاحت نفسي وأنا انظر اليها .

وكنا قد اقترينا من البيت .. فهدأت من السرعة .. وتوقفت ..

وكانت هناك عربة اخرى قادمة من الامام ..

وأضاءتنا بكشافاتها .

وهست نائي في ذعر .. انه عزيز زوجي ..

ونزل عزيز من السرعة .. ووقف ينتظرنا .. وكانت تبدو عليه

الدهشة

لم أريح اليث طوال ثلاثة أيام.

عصفت بي حوى الزمنى العرائش .. ولبثت أهذى .. وأتلوى من ألأم
حاددة فى عظامى .. وأقلب فى طوفان من اللهب .. ثم بدأت أفيق .
وسكنت روى مثل شراع القى به الريح على شاطئ مهجور ..
وفتحت عيني لأجد زوجتى واقفة عند رأسى .. وفى يدها كوب من
الليمون .. وعيناها واسمان .. مثل بحر من الفصل على الخنثان ..
وأراحت رأسى على كفها لتستقيق .

ونظرت الى عينيها .. وغارت قواى ..
وربت فى أذنى كلمات نائى .

كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق .. كيف تواتيك القوة لتنظر فى
عينيها وأنت تلق عليها العين .. كيف تجد القوة لتترع ولدك الصغير من
توبك وهو يتشبث بك عند الباب .. أنه قعلتك التى فعلتها ..

إنك تستطيع أن تحون الدنيا كلها .. ولكلك لا تستطيع أن تحون
نفسك .. لا تستطيع أن تكرر فعلتك ..

إدك حينا تحون نفسك تحونى .. فأنت عيني هذه النفس .. وتعلمنى
من خلاها .. مستحيل .

ونظرت الى زوجتى .. ورأيت المستحيل ..

رأيت المستحيل فى البحر الساذج الخنون فى عينيها .. وصمت صوته
فى بكاء ولدى .. وهو ينادى ..

وتذكرت كلمات نائى .. وأنا أقول لها .. سأتركك .. سأحقق الحب
الكبير الذى تعلمين به .. وهى تجاوبنى فى ضعف .

- إن حبنى يتحقق فى قلبى وحده .. فى وهى .. إن كل الأمكنة
تصيق به .. وكل الحلول تضيق به .. انه المستحيل الذى احتضنه فى
ضلوعى ..

كنت أشعر بهذا المستحيل فى تلك اللحظة ..

كنت أشعر بإرادتى تنكسر على عيني زوجتى وهى تنظر الى ورغباتى
تذوب أمام عريضة ولدى الصغير وهو يضع يده فى كفى ..

ماذا أفعل أمام البرامة ..

كيف أنظر الى البرامة فى عينيها وأصنعها ..

لا يوجد حل سوى أن أطوى ضلوعى على المستحيل .. وأعيش به
وحدى فى الظلمة .. أسجنه معى .. ويسجن معى ..

بشئت تماما ..

وكانت زوجتى تحدثنى فى نبرة أسمى :

- هل سمعت الصراخ أسمى ؟

- أى صراخ ..

- لقد كنت محموما ..

- ماذا حدث ؟

- لقد تشاجر عزيز مع زوجته وضربها وكسر ذراعها .. وسقطت

الكوب من يدي .. وغابت عيناى .. وأظلمت الدنيا أمامى فترة .

وأضقت لأجد زوجتى تدلك خدى .. وتربت على شعرى .. ولم تفلتن

الى سبب المي .. لأنها عادت تقول فى حزن :

- سكينه ناني ان زوجها رجل متوحش .
وسكين انا أيضا .. يا ليتنا تعلم كم انا مسكين ..

وفي الظهر تلقت هذا الخطاب من ناني :
اكتب لك يدي الينى . ويدي اليسرى في الجبس .. شكرا لله .. انه
ابق لى يدا سليمة اكتب لك بها .
لقد ضربنى زوجى وكسر ذراعى .. مسكين انا لا ألوهم .. ولكننى
ألوم نفسى .. فقد كنت قاسية فى معاملته .
أرهقنى بشكوكه وأسئلته وسبابه ونظائمه وعظمته .. حتى جن جنونى
وتطاولت عليه .. فقدف صوابه وهجم على كالحوش .. وأخذ يضربنى
حتى كسر ذراعى ..
ليتة أنى على البقية الباقية منى .. لاسترحت .. ليتة اسكت قلبى
الذى يتف بأسلك ..

إن وجودى يرهقنى ..
إن عواطفى تصرخ .. وأنا عاجزة عن ضبطها .. عاجزة عن
إطلاقها .. أسير فى الحياة كدمية مشطورة تصفون .. نائمة مرمدة ..
نصف نائمة تصفب مستسلمة .. أقوم بأعمال لا أقتنع بها .. وأقتنع
ببإحدى .. لا أعمل بها .. ضائعة .. ضائعة تماما .. أملى الوحيد
مستحيل

لقد ظننت أفكر بعد أن افترقنا .. كيف أوتيت المرأة لأفعل كل
هذا .. كيف خرجت من بيتى لأقابلك .
كيف جرؤت ..
ولكنى الآن أعرف كيف حدث هذا

ان العذاب الذى أعيش فيه افقدنى القدرة على التمييز .. كنت
كالحصون عليه بالاعدام الذى أباحت له الحكمة ان يطلب طلبا قبل ان
يموت .

لقد اهدرت الظروف السيئة حياتى .. واستباححت منى .. وطاردتنى
حق سلم القصة ..
ماذا هناك أكثر من ان تقطع رأسى .. لا شئ ..
وطلبت أن أراك ..
طلبتك قبل أن أموت .
طلبتك وأنا أختنق فى غرفة الفاز .
وأحبست لفترة وجيزة أن أى شئ من حقى .. أى شئ .. حتى
أنت ..

آه .. يا الهى .
انى أستطيع ان اخاطبك انت وحدك .. ولكنى لا أستطيع ان اخاطب
الناس ..
أنت وحدك الذى تفهمنى لأنك مطلع على داخلى .. لا أحد يفهمنى
سواك ..
أنا ساقطة فى نظر الناس ..

ولكنى أعيش فى جهنم ..
جهنم .. هى حياتى .
لقد دفعت ثمن خطيئتى فى الدنيا .. ونفذت العدالة أمرها فى
مصريى .

انتهى أمرى ..
لقد عوقبت وأعاقب كل يوم وكل لحظة .. بل أنا العقاب نفسه ..
ان الخطيئة شقائى وليست لذى .

انى أحسد الفصلا..

ان الفضيلة أمان وسكينة وحرية وسعادة..

انها الجنة.. انها مكافأة حيلة.

انا اعجب للفصلا ينتظرون ان يكافأوا على فضيلتهم بالجنة.

أى جنة.. وهم في الجنة فعلا.

يا حبيبى..

أجل تئى في هذه اللحظة انى وحدى.. لا تئى سوى خيالك.

أنتلك أمامى بسلامتك الطويلة.. وجهك الأسمى الرقيق.. وعينيك

الحاترتين وهما تتدفقان حنانا وطيبة.. وأسمع صوتك الأجرى.. ووبرانك

الرحيمة.. وأعيش في انسجام مع روحك.. أغلى برؤىة نفسى في

مرأتك.. في كلامك.. وخطواتك.. ولفاتك.. وضحكائك

الساعة التى قضيتها معك.. تزودنى بيزاد من الموسيقى لا ينفذ..

ولأصدق بالانتماء.. ويكشف لى جمالا غنيا وواه كل شئ.. أتسمه

بحواسى في لغة.

فكرت كثيرا لماذا أحبك كل هذا الحب.

لم أعرف..

ربما لأنك حريق..

ربما لأنك ارادنى التى فرحت بها لأول مرة وأنا أقتسم بها الظروف

وأحطم كل ما حولى من خير ومن شر لأصل اليك..

ربما لأنك أنا.. وقد ظفرت بك.. وينفى في ذات الوقت..

ولو أننى قد اخترت زوجى بكامل حريقى.. لما أحبيتك.. ولما

عرفتك..

أنانة..

ولكن لا..

انها ليست أنانية الى النهاية.

هناك سر آخر..

سر فى الدنيا.. كشفت لى عنه فأصبحت أحبها.. وأشعر بحبها

وأهتز لسلامتها.. وأتلفذ بالحياة فيها..

سحر خلقى فى الوجود دلى عليه حبك..

ما أكثر ما يستطيع الحب ان يفعل

انى أتذكر حال زوجى منذ سنوات حيا كان يحب اخى.. كيف

كان يضى بشفاقة حلوة.. وكانت أساوره تضحك فى طلاقة..

وحركاته تتساب فى خفة ومرح..

وأنا مله الآن.. وهو ثقل معتم جامد غليظ.. يتحرك فى لزوجة

وربطه.. الكراهية تنفيع فى جسمه كما تنفيع الرطوبة فى المفاصل..

كيف أشعر أحيانا وهو ينظر لى.. انه سوف يقتلنى.. كيف أحوال

المستحيل لأنهم دون ان أستطيع وكأنه من مادة أخرى لا أستطيع

الامتزاج بها.. عادة ثقيلة ترسب فى نفسى ولا تنوب..

كيف تتماثر منذ سنوات.. ونحن منفصلان.. نتلاشى بالجسم

فقط.. يمحنا الانسحاق احيانا.. فأصدق عليه.. وأنا أتأفف.. كالى

أفزع دواء مرا.. ثم أعود فأثور عليه وأتلفذ بجرماته وتضديه.

والآن.. وأنا أحبك.. كيف أشعر أحيانا.. انى احب كل ما فى

الدنيا.. وأننى أحبه.. حتى هو أيضا.. وأزداد قربا منه ومن

أولادى.. ويبقى.. وأشعر بالصلة الوثيقة التى تربطنا كلنا..

حبك رد لى قدرتى على أن أحب.. وأعطى.. ومتعنى القوة

لأعترف.. وأنعمل.

لم أكن فاضلة .

كنت أريد اللذة كلها . . ولم يكن يشبعني قسط منها . . لم تكن تشبعني رشفة من حافة كأسك . . أو لسة من وجودك . . ولذا أترت أن أعيش في معنى وجودك . . مع صورتك وفكرتك . . شكراً لك . .

إن حيى لك يحمى منك ويحمى لك . .
وحبك أنت أيضا لى . . كأجل ما تكون مع زوجتك وولدك . .
إن الحب يسحر طبيب مها كانت صمونه . . ولا يمكن للواقع أن يساومه . . لأن الواقع أضيق منه وأرخص . . ولو أنى أصبحت زوجتك فلن يجد حى لك كفايته . . وسوف يحتق في التماسك اليومى المبتذل مع الطباخ واليواف واليقال .

إن الحياة قاسية . . قاسية . .

الحياة تموسنا . . وتموس شاعرنا . . وتموس أحلامنا . . كل غى يتحقق فيها تسقط قيمته . . حتى المادة نفسها . . حتى التقود . . تظل حلما جميلا حتى نكسها ونفقها فتسقط قيمتها وتصبح نيشا عاديا نرميه . . وتنخلص منه بالقرار . .

أنا أكثره الواقع . .

وأحبك أنت أكثر من الواقع .

وأكثر من الحياة . .

وأحب حيك أكثر منك . . وأكثر من نفسى . . وأصعد به الى سماوات أجل من نفسى ومن الدنيا . . سماوات مضيئة في داخلى . . تتحقق السعادة . . والسلى . . والمرام . .

يا حبيبى يا أجل ما فى دنياى . . أنا أحبك الحب كله . . فلا يحبى الحب الصغير الذى لا يذكرنى الا حيا يسوع الجسد ونجوم المينان

ان الكراهية تئى قطنع يوقف الدم فى القلب . .

وقد عشت طول عمرى أحارب الكراهية بدون سلاح . . أحاربا وأنا أكثره ان أحاربا . . وأكثره نفسى . . كنت تميسة . . تميسة جدا أنسى من أن أدافع عن حياى .
ولكنى الآن أحارب الدنيا . . بك .

هكرت فيك وأنا أنام . .

واكتفيت وأنا أغمض عيني بأن افكر فيك واعيش فى معنى وجودك . .

ولم يحضر بيالى ان أذهب اليك بجسمى . . وأحاول ان أقابلك . .
كان شعورى محرك . . وشعورى لصون نفسى . . أكبر من ذلك الأجر الزهيد الذى تمدنى به هذه المقابلة . .

كان ملتقانا فى الخيال . . أرحب بكثير من الغرفة التى التفتينا بها فى الواقع . . وكانت مسرق بك أعقم . .

لا . . ليست القضية . . كما تبادل الى ذهنك . . هى التى تمتنى من أن اسمى اليك . . فأنا لست امرأة فاضلة . . وإنما حسي هو الذى تمتنى . . إنسانى بأن أى لذة أفوز بها معك بالمجد لن تطفى . . ولن تساوى عطشى . . وكل ما ستنقله . . انها سوف توسع هوة المستحيل التى تقف نحن الاثنان على حافتها . . وتزيد حسرتنا . . وبأسنا . . وعذابنا . .

وطمعى فى أن أفوز بك كاملا هو الذى قعد فى مكافئ لا أيرحه ولا أحاول أن اسمى اليك لأفصاك . . ولا أرضى فى هذا القسط الزهيد من اللذة . .

ويخرج اليان .

أحبتي الحب الكبير .. الذى ليس له حل .. وليس فيه شجيع ..
وليست له وسائل ولا أوقات ..

الحب المستمر مثل الوجود .. المحاضر فى القلب مثل الحفصان ..
المتصل كالأنفاس .. فى النوم واليقظة .

لا تحاول ان تسعى الى لقاء مسروق لتضيع جسدك وعينيك معي .
ان هذا أجبر زهيد لا أقبله .. لكل هذا الحب الذى أحبه لك .
سوف أحزن كثيرا .. اذا حدث هذا .. سوف أتعذب .

سوف تعذبني وحدتي من جديد .. وحدتي فى حب لم يجد صداه ..
يا صبيبي يا أمي .. لا تخذلني ..

دمت لي .. ولولئك .. ولزوجتك .. وسعدت في كل اوقاتك ..
« نائي »

قرأت الخطاب مرة .. ومرتين .. وثلاثا .. وأربعا .. ولا أدري كم مرة
بعد هذا كنت أقرأه .. ثم أضعه الى جوارى ثم أعود فأقرأه .

وكأنى أجبري والحق .. فى طريق ليس له آخر .. أسمع صوتها يرن
حولى .. ولا أجدها .. مثل الروح تملأ ولا أراها ..

مثل روحي أنا ..

قريبة .. ومستحبة .

- ١٥ -

منذ شهر وأنا أعمل فى ورشة السيارات التى فتحتها .. كل يوم من
الصباح الى المساء .

أشعر بلذة من الانتهاء فى عمل .. وأشعر بسعادة لأنه عمل ..
أوظف فيه خبرتي وذكاى ويجهودي دون وساطة أحد .. أنا والآلة تقف

وجها لوجه .. أفكها .. وأضبطها .. وأحكماها .. وقد تطورت الصلابة
بيننا الى صداقة فانا أصادقها كأنها آدمي له قلب وأحشاء ولحم ودم .

تمت اليوم وأنا راكع تحت إحدى العربات لو انى استطعت ان أقبل
نفسى وأعيد تركيبها ..

تمت لو أنها طارعتنى ..

ان الحديد يطاوعنى ولكن قلبي لا يطاوعنى ..

أنا أبث عقل فى الآلة فتتحركه .. وتنظم .. ولكن عاجز عن أن
أبث عقل فى عاطفتى .

أشواق تحرقنى .. صوتها يرن فى أذنى على الدوام .. روحها تحكنى
وتسلبنى الاودة ..

أنتس الهدوء لنفسي فلا أجده .. كيف أنساها .. كيف أروض نفسي
على الحياة بجوارها دون أن أطلبها .. كيف أطلق ضرام الرغبة .. ولهب

الحنين .. وعقل .. حتى عقل يشتهيها .

إنها تجد الحصانة متى في حبلى .. على أنا لا أجد حصانة منها في حبى ..

حاولت ان أجعل نفسى على هذه القداسة التى أستغنى بها عن لذات الحواس .. ولكنى لم أستطع .. غلبت بشرقى ..

أحترقت نفسى .. كنت أذهب أكثر من مرة الى التليفون .. ثم أعود أقف أمامه في خوف وتردد .. أمد يدي ثم أردها ..

وأحيانا كنت أرفع الساعة وأدير القرص على رقم أو اثنين ثم لا أجد التجماعة لأستمر فأضع الساعة من جديد .. وكنت أجد في ادارة الأرقام لذة لئلا تنمى اليها .. وكان اسمها على لسان زوجى بجرى .. كأنه كائن حى ..

وكانت الموسيقى تعذبى .. تذكرنى بها .. يتقاطعها .. يصوح التحيل .. ومشيها المتسجمة ..

فكرت كثيرا في خطايا الأخير .. وفى كلماتها ..

كيف صعدت الى هذا الصفاء العلوى ..

مالذى تدعنا الى فوق ..

العذاب ! !

المتحيل ! ! !

حاولت الخلاص مثلها فلم أستطع .. كان الواقع يشفق .. ودنيا الحواس تعذبى .. وتبدو لى أكثر اقناعا ..

كانت بيننا مسافة إنسانية .. هى العذاب الذى تعذبه ..

سافرت الى الاسكندرية لأغرق هوى فى صخب المصيف .. ولكن

الأمر لم يتغير كثيرا ..

كان الضخيب يطفو على سطح وجودى .. والحوادث تجري حولى كأنها على شاشة .. مزولة عن نفسى .. لا أتعاطف معها إلا بحاملة .. دون أن أمتزج بشئ فيها بالقلب ..

قابلت الأستاذة فاطمة المحمية .. وكانت نفسى وحدها بإعياء .. تحيلة شاحبة تحت عينها غصون سود ..

لم اعرفها في البداية حتى سلكت على .. فأخذت أدور بعينى فى جسمها باحثا عن الاستدارة الجميلة التى كنت أراها مرسومة تحت الفستان .. والصدر الزجاج الشهى الذى كان يكظ من فتحة ثوبا ..

كانت تبدو كجذع غلة سقطت فارتها ..

طلبت منى أن أوصلها للفندق لأنها متعبة .. والمفص عاودها ..

ذهبت معها الى غرفتها .. وطلبت الطيب ..

تذكرت اللبالي التى قضيتها سويا .. وأنا امتنع الى صوتها المبلل .. تذكرتها كأنما أتذكر مرابا ..

.. كيف حاللك يا حلمى .. يحيل الى أن سنوات مضت دون أن أراك ..

.. نعم .. سنوات ..

.. تبدو مهموما .. ليست هذه عادتك ..

.. هوم الحياة ..

ولم أثنأ أن أخبرها بشئ من هوم الحياة .. ولكنها قالت فى فتول :

.. لم أكن أعقد أن الهوم تستطيع أن تتالك .. كنت تبدو لى دائما رجلا قويا ..

.. ان الانسان لا يستطيع أن يعيش الى الأبد قويا .. اليس كذلك ؟

وقلت لها باهتمام :
- قولي الحقيقة يا فاطمة . هل كنت تحبني .. لقد فات أوان
الكذب .

وأجابت في ملل :
- يا ولدي الصغير .. أنا لم أحب أحدا .. ولم يحبني أحد .. لا يوجد
رجل في الدنيا أهل للحب .. أنت تعلم بأنبياء لا وجود لها ..
- ألا تشعرين بالشقاء وأنت تقولين هذا الكلام ..
- دعك من التفلسف .. وقل لي .. هل أحببت أنت ..
- نعم أحببت ..

- ومن هي الساذجة التي خدعتها يا ترى ؟ ..
- أنا لم أخدع أحدا .
- إذن فقد خدعت نفسك .
- وما الذي يدعوني لأن أخدع نفسي .
- لتخلق قصة وهية تجعل بها حياتك .. أليس هذا هو الحب .
- إن الحب هو الذي خلقني .. ولست أنا الذي خلقته .. أنا
لا أستطيع أن أخلق حيا ..
- هذه انصار .. ان الواقع غير هذا ..
- وما هو الواقع عندك .

- الحب في الواقع هو العذر الذي تلجأ اليه لتقضي وقتنا طيبا في
الفراش .. انه الكلمات الشهية التي نقسوها لبعض لنقبل على الأكل
بنفس مفتوحة ونصنع لأنفسنا جوا من المحاسن ننسى به الوقت ..
- لستنا في حاجة لأعذار لتجتمع في الفراش .. ان الحرية تنعز
بالتوبة عنا .. وهي تتكفل بخلق المحاسن اللازم وأكثر ..
- لا مانع من أن نطلب مزيدا من البركة ..

- ماذا تعني ..
أنت لا يبدو الآن أنك قوية كما كنت زمان ..
- أنا ..

واكتست عينها بالحزن وأردفت في نبرة كسيرة ..
- أنا لم أكن أبدا قوية .. أنا كنت دائما أقتل نفسي .. طول عمري
وأنا أقتل نفسي .. لم أجد أحدا يقتلني ..
- لقد قتلت كل من حاولوا انتقاذك يا فاطمة .. أنت تعلمين جيدا
كيف كانت حياتك ..

- نعم أعلم ..
وسكنت ثم أردفت في يأس :
- لا فائدة .. لم يعد هناك فائدة ..
- لا داعي لكل هذا اليأس .. ان الانسان يستطيع أن يبدأ من
جديد .

- أنظن هذا ..
- أكيد ..
وفي الحق لم أكن متأكد ..
- أشكرك على هذا التشجيع .
وأردفت بعد لحظة :

- ماذا كنت تقول حين كنت تتذكرني يا حلمي .. امرأة سيئة ..
أليس كذلك .. لا تحاملي أرجوك .. قل الحقيقة .. انهم جميعا كانوا
يقولون عني امرأة سيئة ..
ولم أقل لها أني لم أنذكرها الا اليوم .. وإنما قلت بجمالا :
- كنت أنذكر اللحظات الجميلة التي عشناها معا ..
- شكرا .. يا لك من ولد وقيق جميل .. كم كنت أحبك ..

- ان لقاء القرائ قد يتم على أحسن وجه ولا يحدث الحب .. وقد لا يتم بالمرء .. ويقوم الحب بدونه .

- هذا كلام فارغ .

وتسعدت ان كلامي يضايقها .. فسكت .. ودخل الطيب .. ونقصها .. وكما حدث في المرة السابقة .. وقف يخصص شفتي في استغراب .. ويقول انه لم يجد شيئاً ذا بال .. ربما كان احتقاناً أو يروا في المعدة .. أو أى شئ فانه لا يدعو للقلق .. ولكنها كانت تتلوى من الألم وتطلب حقة مسكة .

وفتح حقيبته وأعطاه الحقة .. واستمادت روحها .. ومرحها . وقالت مداعبة :

- والآن احك لى عن حيك يا صغيرى .. فقد مضى على وقت لم أسمع نكتة لطيفة .

- ان حبي ليس نكتة ..

- حسناً أخرج منديلك لتكتفك به الموع .. وأحكى لى عن تراجيديا غرامك .

- ألا تستطيعين ان تتكلمي عن شئ دون أن تسخرى منه .. ألا تتصورين أنه من الممكن أن توجد حقيقة .. ولو على سبيل الصدفة .

- أى حقيقة .. ان الدنيا كلها كذب في كذب .. انها نكتة .. انها سخف لا يحتمل .

- ومع هذا فيبدو انك حريصة على التمتع بهذا السخف والاستزادة منه بكل طريقة ممكنة .

- وهذا سخف آخر منى لم أستطع أن أقاومه ..

- ألم يحسب بلهتك ان السخف قد لا يكون في الدنيا .. وإنما قد

يكون في طريقة حياتك هذه الدنيا ..

- هذا وعظ مسيحي جميل .. يبدو ان صاحبك راهبة في الفرنسكان .

- انت اسوأ دعابة لأرائك من الواضح انك لم تستطعي ان تبلى بهذه الآراء أى راحة أو سعادة وهذا انت بعد ثلاثين سنة .. وحيدة لا رجل .. ولا زوج .. ولا ولد .. ولا بيت .. ولا حتى صديق .. وحيدة مريضة في فندق مهجور وفي بلد لا تعرفين فيها احداً .. هل هناك فئسل أكثر من هذا لك ولأرائك .. هل يمكن ان يصائب انسان على أنامه بأكثر من هذا ..

ويبدو ان كلامي كان قاسياً لانها سكنت .. وشحب وجهها .. وظهر عليها الحقد والمرارة واليأس ..

وظلت تصارع ضعفها لحظة ثم انهارت فجأة .. تيكى .. وتشد شعرها ..

- حلمى .. حرام عليك .. لا تقتلى .. لا تقتلى ..

- انا مسكينة .. مسكينة .. انا فى حاجة إلى العطف والحنان ..

- لن تجدى العطف والحنان إلا اذا اعطيت العطف والحنان .

- انا غير قادرة على ان اعطى احداً شيئاً .. انا لا املك عطفاً ..

- ولا املك حناناً .. انا مسكينة .. مسكينة ..

وظلت ترد كلمة .. مسكينة .. مسكينة .. مدة طويلة حتى استراحت وهذأت فسحنت دموعها ثم قالت فى صوت ضعيف هائس :

- حلمى انت لا تعرف عنى شيئاً ..

- انا اعرف ما يكفينى ..

- ابداً ..

وسكنت لحظة .. ثم عاودت تيكى فى سكن .. وقالت فى وجعل
وتردد ..
- سوف اقول لك حقيقة لا تعلمها .. هل تعرف سر هذه التويات
من النص الذى تتناهى ..
وسكنت .. وترددت ثم قالت بصوت مضطرب ..
- انى اتحايل بها لأحصل على حقن المورفين .. انا اضمن المورفين من
زمن طويل ..
وكانت هذه الحقيقة مفاجأة بالنسبة لى غاما ..
وأحسست بالإستغناء الشديد نحوها ..
- يجب ان تدخل مستشفى لتعالج نفسك من هذا الإدمان المدمر ..
- لا فائدة .. سوف اعالج الإدمان .. ولكن كيف اعالج حياتى ..
كيف احتملها بدون ان اتجرع السم كل يوم .. كيف اعيش بلا حب
بلا هدف بلا إيمان .. بلا معنى .. بلا إله .. كيف احتمل حياة كلها
عبت فى عبث ..
لماذا لا تتكلم ..
- ماذا استطع ان اقول لامرأة لا تتسحر أن فى عالمها لها .. كيف
ادخل لها النور .. وقد اغلقت كل النوافذ ..
- انا لا اريد الها .. انا اريد رجلا يمينى وأحبه رجلا يمينى بكل
قلبه ..
وعادت تيكى ..

طسول الطريق أثناء عودتى من الاسكندرية كنت أفكر فى نانى ..
عصفور جميل سجين .. بين جدران أربعة من المستحيل .. لا يملك حريته
ولا خبزه ولا جسمه .. يفتى .. لأن لمسة من الحب لمست روحه
ففاضت بالحنان والجمال .. وأحببت كل شئ .. حتى الأم وجدت له
ميرزا وعذرا ..

وفاطمة التى ترح طليقة كما تمتهى شرب السم تموت ببطء يائسة
وحيدة تعيسة ..
بدون حب ..
يا ويلنا بدون حب ..
وأحسست بالشوق .. بالشوق اليهم الى الصعود حيث توجد حبيبى
فى ملكوتها وجمالها ..
وكان الشوق يسحقنى يذيقنى ..
وكان أول شئ فعلته حيناً وصلت الى جريت نحو التليفون واغلقت
الباب .. كطفل يريد أن يأكل قطعة من الحلوى وحده ..
ورفعت الساعة وادرت القرص على ارقامها الخمسة .. ثم جئت
فوضعتها وأنا ارتجف .. ثم عدت احملى فى الآلة السوداء .. والمتساعر
تخطفتى .. وليت فترة .. ثم عدت فأدبرت الرقم .. وصحبت صوتها
رائقا .. صافيا .. حلوا ..
- نانى .. اريد ان اراك ..
وليست صامتة لحظة .. ثم اجابت فى صوت متهدج يذوب حيا ..
- يا حبيبى .. انى اراك .. اراك انت وحدك .. ولا أرى شيئاً
سواك .. ارى بك الدنيا كلها .. اراها فى صوتك ..
- نانى .. انا اريدك ..
- يا حبيبى لا تعذلى ..
- انى احبك .. احبك ..
- ان احبك جعلنى ملكة .. فلا تدعه يعطى جارية ..
- انا احبك ..
- انا اعبدك .. انت روحى .. ارافقى .. املى ..
- كن ارافقى الكبيرة ولا تكن ارافقى الصغيرة ..
- انت لا تعيننى كما احبك ..

.. انا احبك اكثر مما تحب ..
وسكنت لتلهث .. وغطف انفاسها .. كأنها كانت تجرى شوطا
طويلا ..

وأحسست بلهنتها تنبع من بعيد .. ومن قريب .. من قريب جدا ..
من روعي ..

وأحسست انى صغير جدا الى جوارها .. ولم اعرف كيف اعتثر ..
.. ساعدتني لأحبك كما تحبيني ياملكنى .. لن اجعلك جارية ابدا ..
ابدا .. سوف اكون ارادتك .. إردائك الكبرى .. وأحل أحلامك ..
.. يا حبي .. يا حبي .. يا حبي ..

وظللت برهة سكاكنا .. لأحس بوجودى فى الدنيا .. ثم بدأت
أفنى ..

ونزعت الى عملى .. وظللت اشتغل الى وقت متأخر من الليل ..
وعدت مرهقا .. لأتند فى فراشى .. مفتوح العينين فى الظلام ..
أتذكرها وأتذكر كل كلماتها .. كلمة .. كلمة .. وأتسى منها القداسة ..
والنجاة .. وأتوكل بها الى الجزء الأسمى من وجودى .. وأصمد اليها ..
على درجات المستحيل درجة .. درجة .. يأخذ حيا بيدي .. الى حيث
اجل لذاتنا ..

إعادة الرفع تمت بواسطة :

محمد بحيرى

WwW.Faceb00k.Com\KemyaV

شكر خاص

مهندس / حامد على بكير